الفصل الثالث

أبعاد المنهج السنني لابن كثير، دراسة تطبيقية

يتناول هذا الفصل في أربعة مباحث تفسير القرآن العظيم: المصادر والمنهج، وأبعاد المنهج السنني للإمام ابن كثير، ونماذج من منهج ابن كثير السنني في أبواب العقيدة تحليل ونقد، ونماذج من منهج ابن كثير السنني في أبواب العبادة والتشريع، ومقارنة بين منهج ابن كثير السنني وطريقة أهل الرأي في التفسير.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

مقدمة:

إن من جليل الأعمال، وكبير الفعال، وما يقرب العبد لذي الجلال، وما ينال به العبد عظيم الخصال، عند ربه الكبير المتعال، فهم وتدبر كلام الله – تعالى – القرآن الكريم فهو خير الكلام، وإدراك معانيه، واستخراج كنوزه ودرره، وعلومه وأسراره، ومن ثم العمل بمقتضى ذلك الفهم والإدراك، والانتفاع بهذه المستخرجات، وهذا غير ممكن ولا يتأتى لأحد بلا تفسير لكلام الله – تبارك وتعالى – وفهم للقرآن الكريم فهماً يوافق فهم سلف الأمة الأولين، فهم أجل فهماً، وأعلم بمعاني اللغة، وأحكم في ضبط الألفاظ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مجموع الفتاوى: " ومن المعلوم أنّ كلّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرّد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فنّ من العلم كالطبّ والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الّذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم"[293].

وتفسير القرآن عمل عظيم قام به السلف من هذه الأمة الخيرة خير قيام، فبيّنوا المحكم منه والمتشابه، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، والمطلق والمقيد، ووقفوا عند حدود ما لا يدركه إلا من أنزله سبحانه وتعالى، فهم الراسخون الذي قال الله – جل شأنه- فيهم: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[294].

قال عبد الله بن عباس– رضي الله عنهما –: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل[295].

---

293. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم. *مجموع الفتاوى*. 1412هـ 1991م.. الرياض السعودية : دار عالم الكتب. د.ط. 332/13.

294 . القرآن الكريم. سورة آل عمران.3: 7 .

295 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي ت 774هـ. .1427هـ2006م. *تفسير القرآن العظيم*. راجعه ونقحه الشيخ خالد محمد مكرم. صيدا: المكتبة العصرية. 304/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

المبحث الأول

تفسير القرآن العظيم "المصادر والمنهج"

أتناول في هذا المبحث – وقبل الشروع في ذكر أبعاد المنهج السنني لابن كثير، ونماذج من تفسيره في العقيدة والأحكام، والمقارنة بين منهجه في تفسير القرآن العظيم التفسير بالمأثور، وطريقة أهل الرأي، فيما يأتي من مباحث الفصل- بعض التعريفات والمصطلحات المتعلقة بهذا المبحث لتكون توطئة لما بعدها، فأبتدئ مستعيناً بالله – تعالى – بـ: تعريف المنهج. تعريف التفسير لغة.تعريف التفسير اصطلاحاً.ذكر المصادر تفسير ابن كثير.المنهج العام لتفسير القرآن العظيم.

التفسير لغة:

لغة: فسر: الفسر: البيان. فسر الشيء يُفسّره، بالكسر، ويفْسُره بالضم، فسْراً.

وفسره: إذا أبانه، والتفسير مثله.

ابن الأعرابي: التفسير والتأويل بمعنى واحد.

وقوله عز وجل:﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[296]. الفسر: كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل ردّ أحد المحتملين إلى ما يُطابق الظاهر. واستفْسرتُه كذا أي سألته أن يُفسره لي. والفسْر: نظر الطبيب إلى الماء، وكذلك التفْسرة؛ قال الجوهري : وأظنه مولداً، وقيل التفسْرة البول الذي يُستدل بلونه على علة العليل، وهو اسم كالتنهية، وكل شيء يُعرف به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته[297]. قال الفيروزآبادي: الفسر الإبانة. وكشف المغطي. كالتفسير. والفعل كضرب ونصر .

---

296 . القرآن الكريم. سورة المائدة.5: 48.

297. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي . د.ت. لسان العرب المحيط. 1095/4.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ونظر الطبيب إلى الماء كالتفْسرة، أو هي البول ، أو هي مولدة . قال ثعلب[298]: التفسير والتأويل واحد، أو هو كشف المراد عن المشكل، والتأويل ردُّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر. وفُساران بالضم: بأصبهان[299].

ونلحظ أنّ (التفسير) مشتقّ من (الفسْر)، ففسر الشّيءُ إذا بان وظهر، حتّى قال العلماء: إنّ حروف هذه الكلمة تدلّ على البيان ولو قلبت، ومنه (سفر) أي:كشف، وأسفرت المرأة عن جهها إذا كشفته، وهو السّفور، ومنه أيضاً قول الله- تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾[300] أي أضاء، و(السَّفَر) سُمّي بذلك لأنّه يكشف عن طباع وأخلاق صاحبه، وغير ذلك. إلاّ أنّ السّفْر هو الكشف المادّي والظّاهر، والفسْر هو الكشف المعنويّ والباطن.

قال أبوحيان في بيان معنى التفسير لغة: التفسير الاستبانة والكشف، قال ابن دريد: ومنه يُقال للماء الذي ينظر فيه الطبيب تفْسرة.

التفسير: التعرية للانطلاق. قال: ثعلب تقول فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره[301].

التفسير اصطلاحاً:

تنوعت وتعددت أقوال العلماء في بيان معنى التفسير اصطلاحاً بتنوع مدارس التفسير وأزمنة المفسرين، وأذكر بعضاً من هذه الأقوال :

---

298. أبو العباس أحمد بن يحى النحوي المعروف بثعلب، كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين ببغداد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان 102.104/1.

299. الزاوي، الطاهر أحمد. 1980م. ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة. الدار العربية للكتاب. 490/3 بتصرف.

300 . القرآن الكريم. سورة المدثر. 74: 34.

301.أبوحيان، محمد بن يوسف الأندلسي ت 754هـ.1403هـ1983م. *تفسير البحر المحيط*. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 13/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

- قال الزّركشي[302] – رحمه الله –: " هو علم يفهم به كتاب الله المنزّل على نبيّه محمّد – صلى الله عليه وسلم– وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه "[303].

- قال أبوحيان: علم يبحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها التركيبات وتتمات لذلك، وذكر أثناء شرحه للتعريف، وقولنا التتمات لذلك: هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة تُوضح ما انبهم من القرآن، ونحو ذلك[304].

– قال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني : التفسير في الاصطلاح : علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[305].

– وقال أيضاً: وعرفوا علم التفسير أيضاً بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام[306]. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي عند قول الله – تعالى –:﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[307]أي: أنزلنا عليك قرآناً جامعاً للحقِّ في معانيه والوضوح والبيان التامِّ في ألفاظه؛ فمعانيه كلُّها حقٌّ وصدقٌ لا يشوبها باطلٌ ولا شبهةٌ بوجه من الوجوه، وألفاظُهُ وحدودُهُ للأشياء أوضحُ ألفاظاً وأحسنُ تفسيراً، مبين للمعاني بياناً كاملاً[308].

---

302. محمد بن بهادر بن عبدالله التركي الأصل المصري، الشيخ بدر الدين الزركشي، وُلد سنة 745هـ، عني بالفقه والأصول والحديث، مات في ثالث رجب سنة 794هـ بالقاهرة. *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*. 3/ 397، 398.

303. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله ت794هـ. د.ت. *البرهان في علوم القرآن*. تحيق محمد أبو الفضل إبراهيم. صيدا. بيروت.منشورات المكتبة العصرية. ط2. 1/ 13.

304. أبوحيان، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت 754هـ.1403هـ1983م. *تفسير البحر المحيط*. 1/ 13، 14.

305 . الزرقاني، محمد عبدالعظيم. د.ت. *مناهل العرفان في علوم القرآن*. 2/ 3.

306 . نفسه. 2/ 4.

307. القرآن الكريم. سورة الفرقان.25 : 33 .

308 . السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر ت 1376هـ. 1422هـ2002م. *تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن* .ص 558.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

مصادر تفسير ابن كثير:

تنوعت مصادر الحافظ ابن كثير في تفسيره تنوعاً كبيراً جداً، وهذا يدل على سعة علمه، وكثرة اطلاعه، ووفور مواهبه – رحمه الله – فجمع بين كل المصادر المعتبرة عند أهل العلم. وكان أعظم مصدر له في تفسيره هو تفسير القرآن بالقرآن نفسه، وكذلك الكتب السماوية السابقة التوراة كما في قصة استواء سفينة نوح عليه السلام على الجودي[309].

من كتب التفسير:

نقل الحافظ ابن كثير عن أئمة التفسير، كتفسير الطبري ت 310هـ، وابن عطية ت 542هـ، والبغوي ت 510هـ، وابن الجوزي ت 597هـ، والقرطبي ت671هـ، وابن تيمية ت 728هـ. إلا أن ابن كثير ما كان ينقل دونما بيان وتثبت لما ينقل إن كان المنقول محل نقد وضعف، كما في نقله عن ابن جرير الطبري المفسر في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[310] وأسند ابن جرير هاهنا حديثا فقال: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا عَمْرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو لم يقل – يعني : يوسف – الكلمة التي قال: ما لبث في السجن طول ما لبث. حيث يبتغي الفرج من عند غير الله" قال الحافظ بن كثير:"وهذا الحديث ضعيف جداً لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد– هو الخُوزي – أضعف منه أيضا. وقد رُوي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسَلات هاهنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم"[311].

---

309 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1420هـ . 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 2/ 408.

310 . القرآن الكريم. سورة يوسف.12: 42 .

311 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1420هـ . 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*.437/2. وانظر منهج ابن كثير في *التفسير*. سليمان إبراهيم اللاحم.ص 76

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

ونقل أيضاً أقوالاً من كتب تفسير اشتُهر أهلها بالاعتزال، كتفسير الزمخشري كما عند تفسيره لقول الله تعالى:﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ﴾[312] قال: قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب، وهو آكد.[313]

وتفسير أهل الكلام، مثل تفسير الرازي المشهور بمفاتيح الغيب، كما في قوله تعالى:﴿ومَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾[314] قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك. وقيل: يطوّف بينهما في حجة تطوع، أو عمرة تطوع. وقيل: المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات. حكى ذلك الرازي[315]، وغيرهم كثير.

ومن علوم القرآن كانت من مصادره :

البيان لأبي عمرو الداني ت 444هـ.

التبيان لأبي زكريا النووي ت 676هـ.

شرح الشاطبية، لأبي محمد القاسم الرعيني الشاطبي الضرير المقرئ ت 590هـ.

ومعاني القرآن للزجاج. إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق ت 311هـ.

والناسخ والمنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام ت 224هـ.

وفضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ت 224هـ.

وكذلك كان من أهم مصادره كتب الحديث:

الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة.

و مسند الإمام أحمد، وموطأ مالك، ومسند الشافعي.وشرح مسلم للنووي.

وسنن سعيد بن منصور، وسنن البيهقي، وسنن الدراقطني. ومصنف عبدالرزاق.

---

312 . القرآن الكريم. سورة البقرة.2: 83 .

313 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1420هـ . 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 1/ 104.

314 . القرآن الكريم. سورة البقرة.2: 158.

315 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1420هـ . 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 174/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم، المعجم الكبير للطبراني، ومسند البزار، ومسند الدارمي، ومسند أبي يعلى. وغير ذلك كثير من كتب الحديث وشروحه.

وأما مصادر ابن كثير من كتب الفقه فمنها:

الأحكام الكبرى للحافظ ابن كثير ت 774هـ.

الإرشاد في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني أبي المعالي ت 478هـ.

الاستذكار لأبي عمر بن عبد البر النمري ت 463هـ

الإملاء للإمام الشافعي ت 199هـ.

الأم للإمام الشافعي 199هـ.

شرح المهذب للنووي ت 676هـ.

الشرح الكبير للرافعي أبو القاسم عبدالكريم القزويني ت 623هـ.

المحلى لابن حزم ت 450هـ.

النهاية للإمام الجويني، واسم الكتاب (نهاية المطلب في دراية المذهب) ت 478هـ.

الكبائر لشمس الدين الذهبي ت 748هـ.

وأما مصادره من التاريخ والسير والتراجم فمنها :

الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ت 463هـ.

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ت 630هـ.

أسماء الصحابة للحافظ أبي نعيم الأصبهاني ت 430هـ.

البداية والنهاية لابن كثير ت 774هـ.

تاريخ الخطيب للبغدادي ت 463هـ.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

تاريخ ابن عساكر ت 571هـ.

التاريخ الكبير للإمام البخاري ت 256هـ.

السيرة لابن كثير ت 774هـ.

معرفة الصحابة لابن منده ت 395هـ.

وكذلك جملة من الكتب المتنوعة المواضيع مثل :

إثبات عذاب القبر للبيهقي ت 458هـ.

الأذكار للنسائي ت 303هـ.

الأذكار للنووي ت 676هـ.

الأذكار للمعري.

الأذكار وفضائل الأعمال للحافظ ابن كثير ت 774هـ.

الاعتقاد للبيهقي ت458هـ.

التذكرة للقرطبي ت 671هـ.

التفكر والاعتبار لابن أبي الدنيا ت 281هـ.

التوحيد للإمام ابن إسحاق بن خزيمة ت 311هـ.

الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل ت 241هـ.

نوادر الأصول للقرطبي ت 671هـ.

القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب لابن عبد البر ت 463هـ.

مسانيد الشعراء لابن مردويه ت 410هـ.

وغير ذلك مما اعتمدها كمصادر لتفسيره العظيم وهي كثيرة جداً .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

المنهج العام لتفسير القرآن العظيم:

تنوعت واختلفت مناهج المفسرين، وكان لكل منهم منهج اتبعه في تفسيره، بحسب الفترة الزمنية التي عاصرها المفسّر، والمدرسة الفكرية التي ينتمي إليها، والحافظ ابن كثير- رحمه الله — من جملة هؤلاء المفسرين، الذي كان له أسلوب خاص في تفسيره بحسب تلك المعطيات، ويُمكن لنا أن نستقرئ منهجه في خطوات ثلاث رئيسية:

الأولى: اعتماده تفسير القرآن الكريم على المأثور؛ فهو أولاً يفسر الآية بآية أخرى،وهو في هذا شديد العناية، وبارع إلى أقصى غاية في سرد الآيات المتناسبة في المعنى الواحد.كما عند تفسيره لقول الله — تعالى -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[316]. وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾[317]. وقال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[318] وهكذا نرى كيف يُفسّر ابن كثير الآية بغيرها، فيأتي بالآيات التي تدل على ذات المعني، وبيان أوسع أحياناً، ويوردها في نفس السياق الذي هو فيه، بحيث تُفسّر الآياتُ بالآياتِ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أصح الطرق في ذلك أن يُفسّر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسّر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر"[319]. ثم بعد ذلك يشرع في سرد الأحاديث المتعلقة بالآية المراد تفسيرها، ويبين ما يُقبل من تلك

---

316 .القرآن الكريم سورة الأعراف.7: 199، 200.

317 .القرآن الكريم سورة المؤمنون .23: 96 – 98.

318. القرآن الكريم سورة فصلت.41: 34 – 36. وابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 744هـ. 1427هـ.2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 256/2.

319 . ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم.د.ت. *مقدمة في أصول التفسير* .ص 93.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الأحاديث وما لا يُقبل. ثم يشفع هذا وذاك بذكر أقوال الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم من أهل العلم، ويرجِّح ما يراه الأرجح، ويُعْرِض عن كل نقل لم يصح ثبوته، وعن كل رأي لم ينهض به دليل. **الثانية:** ومن منهجه – وهو مما امتاز به – أن ينبِّه إلى ما في التفاسير من منكرات المرويات الإسرائيلية؛ فهو مثلاً عند تفسيره لقصة البقرة وبعد أن يسرد الروايات الواردة في ذلك نجده يقول: "... والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا"[320].

وقد حدد موقفه من الروايات الإسرائيلية، فقال: بعد أن ذَكر حديثَ ((بلّغُوا عنّي ولو آية))[321] وحديث ((حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَجَ، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأْ مقعده من النار)) قال: "ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد. فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمِنُ به ولا نكذّبه، وتجوزُ حكايتُه لما تقدّم. وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ دينيّ. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك. كما يَذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعِدّتهم، وعصا موسى من أيِّ شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرِبَ به القتيلُ من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز. كما قال تعالى:

---

320. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 744هـ. 1427هـ.2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 1/ 95.

321. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل. 1422هـ. *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وسننه. وأيامه*. كتاب الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. من حديث عبد الله بن عمرو . رضي الله عنهما . حديث رقم 3274. 1275/3.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ إلى آخر الآية من سورة الكهف الآية 22"[322]. **الثالثة:** فتظهر من خلال التعرف على موقفه من آيات الأحكام، إذ نجده ينقل أقوال أهل العلم في مسائل الأحكام، مشفوعة بأدلة كل منهم، ثم يُرجِّح من أقوالهم ما يرى أن الدليل يدعمه، أو أن السياق يؤيده؛ وهو في كل ذلك مقتصد غير مسرف، ومعتدل غير مفرط، كما في تفسيره قول الله- تعالى-: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ ﴾[323] قال – رحمه الله -: قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل نُسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عُنيت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم.

ورُوي عن الحسن البصري وعكرمة. ما حدثنا به ابن حُميد، حدثنا يحي بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال الله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾[324] وقال: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[325] فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾[326] وقال ابن أبي حاتم : قُرئ علي العباس بن الوليد بن مزيد، حدثنا محمد بن شعيب، أخبرني النعمان – يعني ابن المنذر – عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب، ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه. وهذا

---

322 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 744هـ. 1427هـ.2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 1/5،4.

323 . القرآن الكريم.سورة الأنعام. 6 :121.

324. القرآن الكريم.سورة الأنعام. 6: 118.

325. القرآن الكريم.سورة الأنعام.6 :121 .

326. القرآن الكريم.سورة المائدة.5: 5 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

الذي قاله صحيح، ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم[327].

وكذلك من منهج الحافظ ابن كثير أنه يذكر عند تفسيره لبعض النصوص أسباب النزول كما في تفسيره لقول الله -تعالى-:﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ ﴾[328] قال بعد ما ذكر حديث شعبة، وفيه: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسَى فنام، حُرّم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يُفطر من الغد. فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ذات ليلة وقد سَمَرَ عنده، فوجد امرأته قد نامت، فأرادها، فقالت: إني قد نمت! فقال: ما نمت! ثم وقع بها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره، فأنزل الله: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾. وهكذا رُوي عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفي صِرْمة بن قيس؛ فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقًا[329].

327. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 744هـ. 1427هـ.2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 2/ 158.

328 . القرآن الكريم.سورة البقرة.2: 187.

329 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 744هـ. 1427هـ.2006م. *تفسير القرآن العظيم*.1/ 192.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

المبحث الثاني

أبعاد المنهج السنني للإمام ابن كثير

لقد مر فيما سبق ذكر المعنى اللغوي للمنهج، وذكر معنى السنني بما يغني عن الإعادة هنا.

وفي الجملة فالمنهج هو الطريق التي يسير عليها الفرد اعتقاداً وعملاً، والسنني أي إعمال الحديث في البيان والشرح والاستدلال دونما انحراف به عن مقاصده التي أرادها الشارع منه.

فمن المتقرر عند أهل العلم، أن السيرة النبوية مع الحديث الشريف يمثلان معاً السنة النبوية، وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم من مصادر التشريع الإسلامي؛ لأن السنة النبوية تشمل الأقوال والأفعال والتقريرات، وإذا كان علم الحديث يقوم في المقام الأول على الأقوال فإن الأفعال والمواقف التقريرية تعتبر عماد السيرة النبوية.

ومن هنا كان من أهم المسائل العلمية المتعلقة بأصول التفسير، هو منهج الحكم على الآثار المروية عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أقواله وأفعاله وتقريراته، وكذلك مَن بعده مِن سلف الأمة الصالح، والآليات المتبعة في ذلك، والذي نشير إليه هنا بالمنهج السنني في التفسير، وهو مدار الحديث في هذا المبحث، فلقد وضع أئمة الجرح والتعديل، لقبول الرواية عن النبي – صلى الله عليه وسلم– في كل العلوم، ومنها علم التفسير، ضوابط منهجية في غاية الدقة والإتقان، وهي تحقق أحد المآثر العلمية التي تفاخر بها الأمة الإسلامية.

سؤال: ما المراد بالمنهج السنني في التفسير؟

للإجابة على هذا السؤال سوف أتناول بالحديث عن فرقتين من فرق المسلمين، وظّفوا الحديث في تفسير كلام الله – تعالى – معتمدين الحديث كمصدر ثان للتفسير. وهاتان الفرقتان هما أهل السنة والجماعة،

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

والمعتزلة، فأما أهل السنة فسوف ننظر إلى طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسيره الكبير، وأما المعتزلة فسوف ننظر إلى الزمخشري في تفسيره الكشّاف.

يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني:" إن السنة التي لها هذه الأهمية في التشريع إنما هي السنة الثابتة عن النبي – صلى الله عليه وسلم– بالطرق العلمية والأسانيد الصحيحة المعروفة عند أهل العلم بالحديث ورجاله، وليست هي التي في بطون مختلف الكتب من التفسير والفقه والترغيب والترهيب والرقائق والمواعظ وغيرها فإن فيها كثيراً من الأحاديث الضعيفة والمنكرة والموضوعة وبعضها مما يتبرأ منه الإسلام" [330].

وأقول: لقد تباينت طرق ومناهج المفسرين في توظيف النص الحديثي في تفسير القرآن الكريم، بحسب أمور ومقتضيات كثيرة، وسوف أذكر قول الفريقين في آية من كتاب الله المجيد، تناولت مسألة عقدية مهمة جداً، ألا وهي رؤية الله –تعالى– يوم القيامة؛ ليتبين لنا حقيقة المنهج السني المتبع في تفسير كتاب الله– تعالى– فالمعتزلة يقولون: إن رؤية الله منتفية تماماً؛ لأنها تقتضي الجسمية، وهي ما يتنزه الله عنه! والمعتزلة أجمعوا على أن الله — سبحانه – ليس بجسم ولا عرض، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة، حتى إن بعضهم يُكفّر من يقول برؤيته، والمعتزلة مناصرةً منهم لرأيهم يردّون كل الأحاديث النبوية التي أثبتت الرؤية بدعوى أنها أحاديث آحاد، وإنما يُقبل خبر الواحد فيما طريقه العمل لا الاعتقاد[331]!! ويستدلون بأحاديث لا يمكن أن تُعارض ما ثبت في الصحيحين وغيرهما مما سيرد ذكره، فمن أمثال ما استدلوا به تعطيلاً، أن نجدة الحروري سأل ابن عباس– رضي الله عنهما – فقال: كيف معرفتك بربك؟ فقال: أعرفه بما عرفني به نفسه من غير رؤية، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالقياس معروف بغير تشبيه، كما ينسبون خبراً لعائشة — رضي الله عنها – يقول إنها سمعت بأن القوم يقولون: بأن الله يُرى،

---

330 . الألباني، محمد ناصر الدين. د.ت. *منزلة السنة في الإسلام*. د.ط. ص 9.

331. يقول الباحث: أليس حديث معاذ لما أرسله النبي — صلى الله عليه وسلم —إلى اليمن وأمره أن يدعوهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، فنقله معاذ وأخبر به وهو خبر آحاد وهو أصل هذه الملة وهذا المعتقد؟

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

فقالت: لقد قفّ شعري مما قلتموه، ودفعت ذلك بقوله تعالى: ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[332] وهذا الاستدلال لا يصلح في مسائل الفضائل فما بالك بمسائل العقيدة!!

وهذا أحد المفسرين من المعتزلة، وهو اللُّغوي الكبير محمود الزمخشري نراه وظّف هذه القوّة اللغوية في كثير من آي القرآن للانتصار لما يذهب إليه من معتقد! فهنا يُؤوّل آية الرؤية بشكل يدفع الرؤية وينكرها انتصاراً لمذهب المعتزلة، فيشرح الفوز في قوله تعالى:﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[333] فيقول:" ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط اللّه والعذاب السرمد، ونيل رضوان اللّه والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب"[334]

فهو يجعل النجاة من النار ودخول الجنة أعظم فوز حتى ينفي الرؤية، والحقيقة تخالف ذلك، فرؤية الله أعظم من دخول الجنة، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[335] والزيادة هي رؤية الله – تبارك وتعالى – كما قرره كثير من أهل التفسير. وأما الأحاديث الصحيحة التي تثبت انحراف المعتزلة عنها وعن مقصدها الصحيح وتوظيفها في غير محلها بُغية الانتصار للمذهب المعتزلي، فهي كثيرة جداً، وقد عقد الإمام البخاري في كتاب التوحيد باباً ترجم له بقوله باب قول الله – تعالى –: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[336] وقد أورد فيه عدداً من آثار الرسول – صلى الله عليه وسلم – التي تثبت الرؤية. كما عقد الإمام مسلم باباً في كتاب الإيمان لهذا الغرض ترجم له النووي بقوله: (باب معرفة طريق الرؤية) سرد فيه عدداً من الأخبار تثبت الرؤية، جاء فيها عن جرير حدثني زهير بن حرب،حدثنا يعقوب بن إبراهيم،حدثنا أبي عن ابن شهاب، عن عطاء بن يزيد الليثي، أن أبا هريرة أخبره، أن ناساً قالوا لرسول الله – صلى الله

---

332. القرآن الكريم.سورة الأنعام. 6: 103.

333. القرآن الكريم.سورة آل عمران3: 185 .

334. الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ت538 هـ. 1407هـ. *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. 449/1.

335. القرآن الكريم.سورة يونس.10: 26.

336. القرآن الكريم.سورة القيامة.75: 22.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

عليه وسلم-: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: ((هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟)) " قالوا: لا. يا رسول الله! قال: "((هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟)) قالوا: لا. يا رسول الله! قال: ((فإنكم ترونه كذلك))[337].

وقد أورده البخاري عن جرير في كتابي مواقيت الصلاة والتوحيد، وأورد نحوه عن أبي سعيد الخدري في كتاب التفسير. كما خرّج نحوه مسلم عن أبي سعيد الخدري في كتاب الإيمان وعن أبي هريرة في كتاب الزهد والرقائق. يقول الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقول الله – تعالى –: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ موظفاً الحديث في ما أريد له مستدلاً بأحاديث كثيرة وأقوال كثرة من الصحابة والتابعين من أئمة الهدى:" وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس قال البغوي وأبو موسى وعبادة بن الصامت، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت في ذلك أحاديثُ كثيرة، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن يُنْجِزَكُمُوه.

337. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري . د.ت. صحيح مسلم بشرح النووي. كتاب الإيمان. باب معرفة طريق الرؤية.حديث رقم 299. 393/1. الألباني، محمد ناصر الدين. صحيح الترغيب والترهيب. الرياض: مكتبة المعارف. ط5. الجزء الثالث. حديث رقم 3758.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقِّل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم))[338].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"قلت: وأما الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين كمالك والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي حنيفة وأمثال هؤلاء، وسائر أهل السنة والحديث والطوائف المنتسبين إلى السنة والجماعة كالكلابية والكرامية والأشعرية والسالمية وغيرهم، فهؤلاء كلهم متفقون على إثبات الرؤية لله – تعالى- والأحاديث بها متواترة عن النبي- صلى الله عليه وسلم- عند أهل العلم بحديثه"[339].

وهنا نرى كيف يُنكر المعتزلة رؤية الله- تعالى- بزعم أن ذلك غير ممكن واستدلوا بقول الله- تعالى- لموسى- عليه السلام – لما طلب رؤيته ربه فقال الله- جل شأنه -: ﴿لَن تَرَانِي﴾[340].

وبقوله تعالى:﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾[341] تعطيلاً للنصوص الصحيحة التي ذكرها الحافظ ابن كثير فيما مر معنا آنفاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" واحتجاج النفاة أيضاً بقوله تعالى: ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ فالآية حجة عليهم لا لهم؛ لأن الإدراك إما أن يراد به مطلق الرؤية أو الرؤية المقيدة بالإحاطة. والأول باطل، لأنه ليس كل من رأى شيئا يقال: أنه أدركه، كما لا يقال: أحاط به، كما سئل ابن عباس – رضي الله عنهما – عن ذلك فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أكلها ترى؟ قال: لا. ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال: أنه أدركها وإنما يقال: أدركها إذا أحاط بتا رؤية. ونحن في هذا المقام ليس

338 . ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني ت273هـ. د.ت. *سنن ابن ماجة*. كتب حواشيه محمود خليل. مكتبة أبي المعاطي.حديث رقم 187. 129/1. ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1420هـ 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 262/4.

339 . ابن تيمية، الإمام العلامة تقي الدين728هـ. *التفسير الكبير*. تحقيق عبد الرحمن عميرة. بيروت. لبنان: دار الكتب العلمية. 4/ 240، 241.

340. القرآن الكريم.سورة الأنعام.6: 143.

341. القرآن الكريم.سورة الأنعام.6: 103.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

علينا بيان ذلك، وإنما ذكرنا هذا بياناً لسد المنع[342]. ومن هنا يتبين لنا الفرق بين المنهج السنني عند أهل السنة والجماعة وغيرهم، وهو الوقوف عند الآثار دون تحريف ولا خروج بها عن مقاصدها كما فعلت الفرق المخالفة كالمعتزلة حينما أنكروا ما ثبت بالنصوص الصريحة الصحيحة بأحاديث لا ترقى إلى الصحة أو بتأويلات فاسدة، وإعمال للعقل في إنكار ما ثبتت به الأخبار وصح به النقل والفهم. ولقد كان الهدف من تلك الضوابط المنهجية المتعلقة بقبول الرواية عن النبي- صلى الله عليه وسلم - التثبت من صحة ما نسب إليه، ولهذا فقد كانت تتسم بالتشدّد فيمن تقبل روايته، وما ذاك إلا لأن الأمر يتعلق بالتكليف، إذ لا يجوز أن يُكلّف الناس إلا بما تحققنا ثبوته، أو غلب على ظننا ذلك، حفاظاً على المنقول عنه عليه السلام من الدسّ ،والغش، والتدليس، والكذب، فلا يُقبل إلا ما صح سنده، وفي مقولة ابن المبارك- رحمه الله - المشهورة ما يدل على ذلك، قال: " الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"[343]. قال الحاكم معقّباً على هذه المقولة: " فلولا الإسناد وطلب هذه الطائفة له، وكثرة مواظبتهم على حفظه؛ لدرس منار الإسلام، وتمكن أهل الإلحاد والبدعة منه بوضع الأحاديث، وقلب الأسانيد، فإن الأخبار إذا تعرت عن وجود الأسانيد فيها كانت بتراً"[344].

فمن هنا اضطلعت طائفة من أهل هذا الفن – أي فن المصطلح وعلم الرجال – إلى وضع أسس وقواعد لقبول الأحاديث المنسوبة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم-. وهذه القواعد والآليات العليمة الفنية المتشددة، خاصة بأحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم -وليس شيء من المروي من كلام البشر له هذا الميزة التي لكلام النبي - صلى الله عليه وسلم - بل إن بعض أهل العلم فرّقوا في ذات كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - باعتبار موضوعه ومتعلقه. فمقولة الإمام أحمد مشهورة في ذلك يقول- رحمه الله-:" إذا

342. ابن تيمية، الإمام العلامة تقي الدين728هـ. د.ت. *التفسير الكبير*. د.ط. 241/4، 242.

343 . النووي، أبو زكريا يحي بن شرف بن مرمي. 1392هـ. *مسلم بشرح النووي*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ط2. 1/ 78.

344 الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبدالله النيسابوري. 1397هـ .1977م. *معرفة علوم الحديث*.تحقيق السيد معظم حسين. دار الكتب العلمية ط2. 40/1 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

رويْنا عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا رويْنا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في فضائل الأعمال وما لا يضع حكماً و لا يرفعه تساهلنا في الأسانيد" [345]. ومثل هذه المقولة رُويت عن عبد الرحمن بن مهدي، وبعيداً عن الكلام الذي قد يُقال عن هذه المقولة، فإنها تدل على الميزة الخاصة لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - عن سائر حديث الناس.ولهذا فإن منهج جرح الرجال وتعديلهم عند الأئمة رُوعي فيه هذا المعنى، فقد كانوا يردّون الحديث عن النبي- صلى الله عليه وسلم- إذا كان فيه راوٍ ضعيف، مع اعتمادهم على ذات الراوي في الأخبار والسير. فهذا ابن حجر- رحمه الله - يقول عن ابن إسحاق[346]:" إمام في المغازي صدوق يدلس"[347] فهو في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- ضعيف إن لم يصرح بالرواية، وفي المغازي والأخبار إمام حجة. وإذا علمنا ذلك فمن الواضح جداً أن نتبين من خلال منهج الحافظ ابن كثير السنني أنه قد غلب عليه في كتابة السيرة النبوية أثر الحديث وأسلوبه ومنهجه، فالتزم برواية الأسانيد ونقدها، وبيان درجة الحديث على طريقة علماء عصره، بجهد كبير وعمل جليل في تحقيق الأخبار، وتمحيص الروايات، ونقد الأسانيد وفحص بعض المتون، وكشف زيف الغرائب والمناكير، لاسيما الإسرائيليات التي بُثّت في كتب التفسير والسيرة والتاريخ. قال في مقدمة تفسيره - بعد أن ذكر حديثَ: ((بلّغوا عنّي ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأْ مقعده من النار)) [348]: ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد. فإنها على ثلاثة أقسام:**أحدها** ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق،

---

345 . الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ت463هـ. د.ت. *الكفاية في علم الرواية*. علق عليه زكريا عميرات. بيروت. لبنان: دار الكتب العلمية. د.ط. باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجوّز في فضائل الأعمال. ص 124 .

346 . محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة، له السيرة النبوية ت 151هـ. الزركلي. د.ت. 2005م. *الأعلام للزركلي*. بيروت.لبنان: دار العلم للملايين. ط16. 28/6.

347 . ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني ت 852هـ.د.ت. *تقريب التهذيب*.د.ط.467/1.

348. البخاري. أبو عبدالله محمد بن إسماعيل.1422هـ. *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وسننه وأيامه*. كتاب الوصايا. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. حديث رقم 3614. 170/4 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

فذاك صحيح. **والثاني**: ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه. **والثالث**: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمِنُ به ولا نكذّبه، وتجوزُ حكايتُه لما تقدّم. وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ ديني. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا، ويأتي عن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك.فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (67) وما بعدها من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ إلى آخر القصة، قصّ الحافظ ابن كثير قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة وعن وجودهم لها عند رجل من بني إسرائيل، ويروي كل ما قيل في ذلك عن بعض علماء السلف، ثم بعد أن يفرغ من هذا كله قال:" وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم"[349].

وكان الاعتماد الأول على سلامة السند في نقد الأحاديث والأخبار هو الغالب عليه كمحدث حافظ مفسر مؤرخ كبير.

فالحافظ ابن كثير يسير في سيرته على منهج جامعي الروايات من مختلف الموارد، الذين يروون في تصانيفهم جميع ما يروى في الباب أو الموضوع. ولقد بذل ابن كثير جهداً كبيراً في إبعاد الإسرائيليات والموضوعات والأساطير الخرافية والقصص الشعبية القديمة التي دخلت عند المؤرخين المسلمين في كتبه، كالتفسير العظيم، وقصص الأنبياء من تاريخه، والبداية والنهاية وغيرها. ولقد نجح في ذلك إلى أبعد الحدود حين عرض المادة التاريخية القديمة عن عصور ما قبل الإسلام على القرآن والحديث وحقّقها، فأقر ما وجد منها موافقاً في نظر العلم الإسلامي ورد ما رآه مخالفاً، مبيناً ما فيه من ضعف أو نكارة أو غرابة أو شذوذ. واتسمت السيرة النبوية- على وجه الخصوص- عند ابن كثير بالطول والإحاطة الشاملة لجميع نواحي سيرة الرسول -صلى

349. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت774 هـ. 1420هـ . 1999 م *تفسير القرآن العظيم*.تحقيق. سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ط2. 298/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الله عليه وسلم- من ولادته إلى وفاته. وقد ألحقت بها أول مرة في التاريخ العام موضوعات أفردها العلماء المصنفون من قبل بالتأليف، وهي: الشمائل والدلائل والفضائل والخصائص التي ذكرها ابن كثير باعتبارها من متعلقات السيرة النبوية الشريفة.

وقد جمع ابن كثير في السيرة أكبر قدر ممكن من المواد من كتب السير والمغازي والتواريخ القديمة ودواوين المحدثين الكثيرة. وإن كان الحافظ ابن كثير قد اتصف بتحري الصدق، والتزم التثبت من الحقيقة، واجتنب التحيز والميل مع الهوى، فإن ذلك لا يعني تركه الجدال والمناظرة في مسائل خلافية، مثل الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب، والخلاف بين أهل السنة و بين الشيعة، وفي ذكر الفرق المنحرفة الخارجة على الإسلام، وصور هذا كله مبثوث في كتبه كالتفسير العظيم، والبداية والنهاية، والتاريخ، وغيرها، فإنه في مثل هذه المواضع يناظر ويجادل، ويقرع الحجة بالبرهان ليثبت ما يعتقده صحيحاً في نظره، فهو ليس مؤرخاً فحسب؛ بل هو عالم دين شديد التمسك بموقف أهل السنة والجماعة ولو خالف مذهبه وما كان عليه أهل عصره. ولقد تميز بجرأته في الحق، وصراحته في النقد حتى في حوادث عصره، لا يحاكي أحداً ولا يجامل ولا يخاف في الحق لومة لائم. وفيما يلي سأذكر -بمشيئة الله تعالى- نماذج من ذلك كله من خلال كتبه؛ لنتعرف على منهج الحافظ السنني فكما هو الحال مع تفسيره كذلك الشأن في سائر كتبه ومؤلفاته. وبدايةً مع ما ذكره في كتابه السيرة النبوية مما له علاقة بصحيح السيرة النبوية وضعيفها، وبيانه لذلك ونقده وتعليله وآراؤه عامة في مسائل رواية الحديث ورجاله: قال الحافظ ابن كثير في حديث الإسراء: قال ابن إسحاق: وأخبرني من لا أتهم عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: "لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج، ولم أر شيئاً قط أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدني فيه صاحبي حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة، عليه بريد[350] من

350. ملك من الملائكة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الملائكة يقال له إسماعيل، تحت يده اثنا عشر ألف ملك، تحت يد كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك. قال: يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إذا حدث بهذا الحديث: " وما يعلم جنود ربك إلا هو". ثم ذكر بقية الحديث وهو مطول جداً وقد سقناه بإسناده ولفظه بكماله في التفسير وتكلمنا عليه. ثم قال الحافظ تعليقاً عليه مبيناً درجته: فإنه من غرائب الأحاديث وفى إسناده ضعف[351]. وعند ذكر قصة فتح حصن خيبر وبعد أن ذكر ما صح منها قال: وقد روى الحافظ البزار عن عباد بن يعقوب، عن عبدالله بن بكر، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قصة بعث أبي بكر ثم عمر يوم خيبر ثم بعث علي فكان الفتح على يديه. قال ابن كثير وفي سياقه غرابة ونكارة وفي إسناده من هو متهم بالتشيع. والله أعلم[352].

وهذا دليل على تتبع الحافظ لما يرد من كلام المتهمين ومعرفته بأحوال الرجال وعللهم. وفي باب صفة خروجه عليه السلام من المدينة إلى مكة للحج، أعلّ ابن كثير بعد أن ذكر ما صح في هذا الخروج كما عند البخاري وغيره حديثاً لعلة ضعف بعض رواته، وهذا كما سلف، جليل علمه بأحوال الرواة، وأثر ذلك في إثبات الأخبار، ورأي الأئمة في ذلك كشاهد لما يرى، فقال:"وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده من وجه آخر، عن أنس بن مالك، فقال: حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا الربيع بن صبيح، عن يزيد الرقاشي، عن أنس، قال:حج رسول الله – صلى الله عليه وسلم– على رحل رث وقطيفة تساوي أو لا تساوي أربعة دراهم. فقال: " اللهم حج لا رياء فيها ". ثم ذكر سنده فقال: وقد رواه الترمذي في الشمائل من حديث أبي داود الطيالسي، وسفيان الثوري، وابن ماجه من حديث وكيع ابن الجراح، ثلاثتهم عن الربيع بن صبيح به. وهو إسناد ضعيف من جهة يزيد بن أبان الرقاشي، فإنه غير مقبول الرواية عند الأئمة"[353]. وكذلك من

351. ابن كثير، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1396 هـ. 1976م. *السيرة النبوية*. تحقيق مصطفى عبد الواحد.د.ط. 98/2.

352. نفسه. 355/3.

353 . نفسه. 219/4.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

منهجه السنني في رواية الأحاديث والاستشهاد بها أن ينقل عن رواة وعلماء الحديث الكبار وأئمته كأمثال الإمام البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد، فعلى سبيل المثال قال في قصة سجود المشركين في أواخر سورة النجم لما قرآها النبي- صلى الله عليه وسلم – قال": وقال البخاري:حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحق، سمعت الأسود، عن عبد الله قال: قرأ النبي – صلى الله عليه وسلم – " والنجم " بمكة، فسجد فيها، وسجد من معه غير شيخ أخذ كفّاً من حصاً أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، فرأيته بعد قتل كافراً ". ثم قال ابن كثير:" ورواه مسلم، وأبوداود، والنسائي، من حديث شعبة"[354] . وربما أشار إلى كتابه تفسير القرآن العظيم بما يورده هنا في كتابه السيرة النبوية مع ذكر الحديث وتخريجه كما في قصة زواجه عليه الصلاة والسلام من جويرية بنت الحارث – رضي الله عنها-..... ثم ذكر ابن إسحاق قصة الإفك بتمامها في هذه الغزوة، وكذلك البخاري وغير واحد من أهل العلم، وقال "قد حررتُ طرق ذلك كله في تفسير سورة النور، فليلحق بكماله إلى هاهنا والله المستعان"[355].

أما في كتابه البداية والنهاية فإن الحافظ يسلك ذات المنهج في ما سبق من تتبع الأحاديث ورواتها وذكر أحوالهم ودرجة الصحة والضعف فيها، وبيان المعنى منها وفيها، وينقل كلام أئمة الحديث وأقوالهم، فمن ذلك ما ذكره في قصة استشهاد جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – فنقل كلام النبي – عليه السلام- وهو:" لا تبكوا على أخي[356] بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي" قال فجئ بنا كأننا أفرخ، فقال:" ادعوا لي الحلاق" فجئ بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال" أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي" ثم أخذ بيدي فأشالها وقال" اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه " قالها

354. نفسه. 57/2.

355. نفسه. 302/3، 303.

356. يعني جعفراً رضي الله عنه.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ثلاث مرات. قال فجاءت أمّنا فذكرت له يتمنا وجعلت تفرح له فقال" العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟" ورواه أبو داود ببعضه، والنسائي في السير بتمامه من حديث وهب بن جرير، وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام أرخص لهم في البكاء ثلاثة أيام ثم نهاهم عنه بعدها. ولعله معنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد من حديث الحكم بن عبد الله بن شداد عن أسماء أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال لها لما أصيب جعفر" تسلي ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت" تفرد به أحمد فيحتمل أنه أذن لها في التسلب وهو المبالغة في البكاء وشق الثياب، ويكون هذا من باب التخصيص لها بهذا لشدة حزنها على جعفر أبي أولادها وقد يحتمل أن يكون أمراً لها بالتسلب وهو المبالغة في الإحداد ثلاثة أيام، ثم تصنع بعد ذلك ما شاءت مما يفعله المعتدات على أزواجهن من الإحداد المعتاد والله أعلم. ويروى تسلي ثلاثاً – أي تصبري ثلاثاً – وهذا بخلاف الرواية الأخرى والله أعلم. وقال الحافظ ابن كثير: فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، ثنا محمد بن طلحة، ثنا الحكم بن عيينة عن عبد الله بن شداد، عن أسماء بنت عميس قالت: دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم– اليوم الثالث من قتل جعفر فقال: لا تحدي بعد يومك هذا. فإنه من أفراد أحمد أيضاً. وقال الحافظ ابن كثير:"وإسناده لا بأس به ولكنه مشكل إن حمل على ظاهره؛ لأنه قد ثبت في الصحيحين أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميتها أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا))[357] فإن كان ما رواه الإمام أحمد محفوظاً فتكون مخصوصة بذلك، أو هو أمر بالمبالغة في الإحداد هذه الثلاثة أيام كما تقدم والله أعلم"[358].

357. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل.1422هـ.*الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم. وسننه وأيامه*.كتاب الجنائز. باب حد المرأة على غير زوجها. من حديث أم حبيبة – رضي الله عنها. أحاديث أرقام 1280/ 1282/1281. 87/2.

358. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت774هـ. 1408 هـ . 1988 م. *البداية والنهاية*. حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري. دار إحياء التراث العربي.د.ط. 288/4.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وهذا الترجيح والموازنة بين الأدلة والبيان لألفاظ الأحاديث دليل على فقه الحافظ ابن كثير الحديثي، وسعة علمه رحمه الله.

صور من منهج ابن كثير السنني:

1- تحكيم التاريخ في تحليل قضايا المتن والبحث عن العلل:

لقد كان الحافظ ابن كثير في بيان أحوال الرجال، وضبط سنين الحوادث والسير إمام حجة، فعلى سبيل المثال قال الحافظ ابن كثير:" فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد: ثنا محمد بن فضيل، ثنا عطاء، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾[359] قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:" نُعيت إلي نفسي" بأنه مقبوض في تلك السنة. تفرد به الإمام أحمد وفي إسناده عطاء بن أبي مسلم الخراساني وفيه ضعف تكلم فيه غير واحد من الأئمة، وفي لفظه نكارة شديدة وهو قوله بأنه مقبوض في تلك السنة، وهذا باطل، فإن الفتح كان في سنة ثمان في رمضان منها كما تقدم بيانه وهذا ما لا خلاف فيه. وقد توفي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة بلا خلاف أيضاً، وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني رحمه الله: ثنا إبراهيم بن أحمد بن عمر الوكيعي، ثنا أبي، ثنا جعفر بن عون، عن أبي العميس، عن أبي بكر بن أبي الجهم، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً: ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال الحافظ عنه: " فيه نكارة أيضاً وفي إسناده نظر أيضاً "[360].

---

359 . القرآن الكريم.سورة النصر.110: 1.

360. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت774هـ. 1408هـ. 1988 م. *البداية والنهاية*.د.ط. 367/4، 368.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

2- حشد الأقوال المسندة في المسألة مع تحرٍ دقيق وأمانة علمية في النقل وتقليب أراء المحدثين والفقهاء ونقدهم:

فمن كتابه تفسير القرآن العظيم نراه ينقل ما صح به الخبر سواء أوافق المذهب أم خالفه دونما تعصب. ففي حالة الموافقة مثلاً قال في بيان قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[361] فبعد أن ذكر سنة نزول الآية وهو عام الحديبية[362]، وحال صدّ المشركون النبي - صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عن الوصول إلى البيت الحرام.

قال الحافظ ابن كثير:" وأنزل لهم رُخْصَةً أن يذبحوا ما معهم من الهدي وكان سبعين بدنة، وأن يَتَحَلّلوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحلّلوا. فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قَصّر رأسه ولم يحلقه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((رَحِم الله المحَلِّقين))، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: ((والمقصرين))[363]....إلى أن قال:" وثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- دخل على ضُبَاعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية. فقال: ((حُجّي واشترطي أنَّ مَحِلِّي حيثُ حبَسْتَني))[364] ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله. فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث. وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القولَ بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث. قال البيهقي وغيره من الحفاظ: فقد صح، ولله الحمد. ولم يعلق ابن كثير على ذلك وكأنه يرتضي القول، فهي على هذا من موافقات المذهب لما ثبت في الحديث الصحيح. وكذلك في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا

---

361 . القرآن الكريم.سورة البقرة.2: 196.

362. كانت في ذي القعدة سنة ست من الهجرة النبوية.

363. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. صحيح مسلم. كتاب الحج. باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير.من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – حديث رقم 1302. 946/2.

364. نفسه.باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه. من حديث ضباعة بنت الزبير. حديث رقم 1207. 867/2.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾[365] قال: "ويسبون الدهر، فقال الله – عز وجل–: ((يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار))[366]". وذكر أيضاً حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقول: ((قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار)). ثم رد ابن كثير على الظاهرية الذين حملوا المعنى أن المراد بالدهر اسم من أسماء الله واستدل بقول الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: ((لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر))[367] قالوا: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله – عز وجل– فكأنهم إنما سبوا الله – عز وجل– لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى ، أخذاً من هذا الحديث[368].

3– التفرد بقول يخالف المذهب اتباعاً للحديث:

مواقف الحافظ ابن كثير الدائرة مع النص الصحيح والأثر الثابت ولو خالفت المذهب الذي كان عليه ابن كثير وهو المذهب الشافعي مشهورة، ومن ذلك – على سبيل المثال– مسألة الطلاق التي خالف فيها شيخه السبكي الشافعي المذهب حينما اختلف مع ابن تيمية الحنبلي فيها، ومناصرته لشيخه ابن تيمية أعظم الدلالة على عدم تعصب ابن كثير للمذهب الشافعي، إنما يقول بما ثبت به الخبر.

---

365. القرآن الكريم. سورة الجاثية.45: 24.

366. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل. 1422هـ. *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وسننه وأيامه*. كتاب التفسير. باب: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ الآيَةَ. من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه. حديث رقم 4826. 133/6.

367. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري.د.ت. صحيح مسلم.كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها. باب النهي عن سب الدهر.من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – حديث رقم 2246. 1762/4.

368. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر.1427هـ . 2006م. *تفسير القرآن العظيم*. صيدا . بيروت: المكتبة العصرية. د.ط.136/4.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ومن الاستدلال السنني لفهم النص وذكر أقوال الفقهاء للاستعانة على ذلك، قال الحافظ: في قوله تعالى: ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾[369] اختلفوا في هذه (الباء) هل هي للإلصاق، وهو الأظهر أو للتبعيض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة؛ وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحي المازني عن أبيه، أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم وهو جد عمرو بن يحي، وكان من أصحاب النبي: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: عم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث عبد خير، عن علي في صفة وضوء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نحو هذا، وروى أبو داود، عن معاوية والمقدام بن معد يكرب، في صفة وضوء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مثله. قال ابن كثير: ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل؛ لاسيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن. وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية. وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لا يتقدّر ذلك بحدٍّ؛ بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه.واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النبي – صلى الله عليه وسلم– فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: "هل معك ماء؟" فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه فغسل ذراعيه ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه... وذكر باقي الحديث،.فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية؛ لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع

369. القرآن الكريم.سورة المائدة.5: 6.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم[370].

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

370. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1427هـ. 2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 23/2، 24. بشئ من التصرف.

المبحث الثالث

نماذج من منهج ابن كثير السنني في أبواب العقيدة تحليل ونقد

لاشك أن مسألة العقيدة في القرآن استحوذت على النصيب الأكبر من آيات القرآن المباركة، وما ذاك إلا لعظيم أمر العقيدة وخطورتها، فهي الأساس الذي ينبني عليه البينان كله، فلابد حينئذ من تعظيم أمر المعتقد والاهتمام به أشد الاهتمام، وفهم النصوص الشرعية بما يوافق فهم الصحابة والتابعين وأئمة الدين، فإنه من سلمت له عقيدته نجا، ومن خالف هلك، والخير كل الخير في الإتباع، والشر كل الشر في الابتداع.

وبحق أنه لم يثبت في مسائل الاعتقاد وينجو من الزلل في تفسير آيات المعتقد في القرآن الكريم إلا النزر القليل، كما حقق أئمة الدين، وعلماء المسلمين، من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

وممن نجت تفاسيرهم من الخلل العقدي أئمة كبار وعلماء أفذاذ كالإمام محمد ابن جرير الطبري ت 310هـ شيخ المفسرين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن تفسيره: وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري؛ فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي[371]. وقال عنه أيضاً: من أجل التفاسير وأعظمها قدراً[372]. وكذلك البغوي ت 510هـ صاحب "معالم التنزيل" فقد قال عنه ابن تيمية: والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة[373]

وقال عنه الإمام الذهبي: البغوي على منهاج السلف حلاً وعقداً، ووصفه الخازن في مقدمة تفسيره: بأنه من أجمل المصنفات في علم التفسير وأعلاها، جامع للصحيح من الأقاويل، عارٍ من الشبه والتصحيف

371. ابن تيمية، شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم. 1426 هـ 2005 م. *مجموع الفتاوى*. تحقيق: أنور الباز. عامر الجزار. دار الوفاء. ط3. 385/13.

372 . ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم.د.ت. *مقدمة في أصول التفسير*. ص 39.

373. الذهبي، محمد حسين الذهبي د.ت. *التفسير والمفسرون*. 236/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

والتبديل؛ محلًّى بالأحاديث النبوية،مطرَّز بالأحكام الشرعية، موشًّى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة، مرصع بأحسن الإشارات، مخرَّج بأوضح العبارات، مفرَّغ في قالب الجمال بأفصح مقال[374].

وأيضاً تفسير ابن عطية ت 546هـ المسمى" المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" قال عنه ابن تيمية:" أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل"[375]. ومنهم الحافظ ابن كثير ت 774هـ وتفسيره المسمى" تفسير القرآن العظيم" فقد أثنى جمع من العلماء من السلف والخلف كالذهبي وابن حجر والسيوطي والشنقيطي وغيرهم عليه وعلى سلامته من البدع العقدية، وأنه على منهج السلف الصالح. فهؤلاء المفسرون وأمثالهم هم أئمة أهل السنة والجماعة في التفسير، وهم الذائدون عن العقيدة السلفية، المثبتون لها، فرحمهم الله جميعاً.

وسأتناول في هذا المبحث – بمشيئة الله تعالى – بعض آيات الصفات المتعلقة بذات الله – تعالى- من خلال تفسير الحافظ ابن كثير ومنهجه في بيانها من خلال صحيح الحديث النبوي وكلامه فيها ومعتقده. فلقد كان لابن كثير شيوخ كُثر أثروا فيه تأثيراً كبيراً، منهم الحافظ ابن عساكر، والمؤرخ علم الدين البرزالي، وابن الزملكاني، وابن قاضي شهبة، وابن تيمية، والمزي، وابن القيم، والذهبي أبوعبدالله، والفزاري، ولكن يُعد ابن تيمية شيخه الذي أثّر فيه كثيراً، فقد التزم طريقته وناصره وأحبه وانتفع بعلومه، وابن تيمية كان على منهج السلف؛ لاسيما في مسائل المعتقد، وقد بين فيغير موضع بطلان عقيدة التفويض، وابن كثير أخذ بأقواله وأوذي بسبب ذلك كما ذكر غير واحد في ترجمته. وإن كان ملازمته له لا تتعدى سنين قليلة إذا ما نظرنا إلى سنة وفاة ابن تيمية 728هـ وسنة مولد ابن كثير700هـ أي ثمان وعشرين سنة، أضف لهذا سنين

374. نفسه.

375. نفسه.241/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

مُقام ابن تيمية ما بين مصر والشام وفترة سجنه، إلا أنه التزم أقواله وآراءه في كثير من المسائل مما جعله تلميذاً له ولو لم يلازمه كما لازم الحافظ المزي الذي لازمه عشرين سنة كما أخبر هو بنفسه.

صفة الساق:

هذه صفة ثابتة لله – تبارك وتعالى– قال الله فيها: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾[376] قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله–: لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعني: يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام. وقد قال البخاري هاهنا: حدثنا آدم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد الخُدري قال: سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم– يقول: ((يَكشِفُ رَبّنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طَبَقًا واحدًا))[377] وهذا الحديث مُخرّج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور. ثم ذكر ابن كثير أقوال جماعة من السلف من الصحابة والتابعين في معنى الساق واختلاف المعاني في ذلك، فقال: وقد قال عبد الله بن المبارك، عن أسامة بن زيد، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال: هو يوم كَرْب وشدة. رواه ابن جرير ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا مِهْران، عن سفيان، عن المغيرة، عن إبراهيم، عن ابن مسعود– أو: ابن عباس، الشك من ابن جرير–: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال: عن أمر عظيم، كقول الشاعر: قامت الحرب بنا عن ساق، وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال:

---

376 . القلم الآيتان:42، 43.

377. البخاري، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل.1422هـ.*الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله. صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه*.كتاب التفسير. باب يوم يكشف عن ساق. من حديث أبي سعيد. رضي الله عنه. حديث رقم 4919. 159/6.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

شدة الأمر وقال ابن عباس: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة. وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال: شدة الأمر وجده. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ هو الأمر الشديد المفظِع من الهول يوم القيامة. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال. وكشفه دخول الآخرة، وكشف الأمر عنه. وكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير ثم قال: حدثني أبو زيد عمر بن شَبَّة، حدثنا هارون بن عمر المخزومي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو سعيد روح بن جناح، عن مولى لعمر بن عبد العزيز، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال: "عن نور عظيم، يخرون له سجدًا". ورواه أبو يعلى، عن القاسم بن يحيى، عن الوليد بن مسلم، به وفيه رجل مبهم، والله أعلم[378]. قال محققه[379]: ظن بعض الناس أن الحافظ ابن كثير سلك هنا مسلك التأويل لصفة الساق، وهذا فهم خاطئ، وذلك لأن الحافظ ابن كثير فسّر هذه الآية بحديث أبي سعيد -رضي الله عنه- ثم ذكر ما قيل في هذه الآية، وقد تكلم الإمام ابن القيم عن هذه الآية كلامًا بديعًا فقال - رحمه الله - في الصواعق المرسلة: " والصحابة متنازعون في تفسير هذه الآية: هل المراد الكشف عن الشدة؟ أو المراد بها أن الرب - تعالى - يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضوع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله؛ لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجردًا عن الإضافة منكرًا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والأصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه: (فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجدًا). ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى:﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾ مطابق لقوله

378. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1427هـ . 2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 368/4. بتصرف.

379. محقق كتاب تفسير القرآن العظيم ،سامي بن محمد سلامة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

صلى الله عليه وسلم: (فيكشف عن ساقه فيخرون له سجدًا) وتنكيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة، جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثل أو شبيه، قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه؛ فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: كشف الشدة عن القوم لا كشف عنها كما قال الله – تعالى –:﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[380] وقال: ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[381] فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضًا فهناك تحدث الشدة وتشتد، ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة"[382]. وهذا ما ذهب إليه ابن كثير في معنى الساق وإثباته لله – تعالى– بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف[383]. يقول الشيخ سليم الهلالي:" قد أكمل الله لرسوله ولأمته هذه المعرفة، وأتم عليه بها النعمة، ومحال أن يدع الله – جل شأنه– أهم ما خُلق له الخلق، وأُرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، ونُصبت عليه القبلة، وأُسست عليه الملة، ملتبساً، مشتبهاً حقه بباطله، لم يتكلم فيه بما هو الحق، بل تكلم بما ظاهره الباطل، والحق في إخراجه عن ظاهره. ومن أقبح المحال أن يكون الرسول – صلى الله عليه وسلم– قد علّم أمته آداب البول، وآداب الوطء، وآداب الطعام والشراب، ويترك أن يُعلّمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم، الذي معرفته غاية المعارف، والوصول إليه أجل المطالب،

---

380 . القرآن الكريم.سورة الزخرف.43: 50.

381 . القرآن الكريم.سورة المؤمنون.23: 75.

382. ابن القيم،محمد بن أبي بكر 1408هـ. *الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة*.تحقيق: علي الدخيل الله. الرياض. دار العاصمة. 1/ 252، 253.

383. وإن وُجد من الصحابة والتابعين من تأول هذه الآية على نحو ما جاء عن ابن عباس قوله: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة. ومجاهد قال: شدة الأمر وجده. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة. وقال العوفي: عن ابن عباس قال: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال. فقد قال بغير هذا التأويل وإثباتها صفة ثابتة لله. عز وجل – كثير من السلف الصالح وعمدتهم في ذلك حديث أبي سعيد الخدري الآنف الذكر.منهم الصحابي الجليل عبدالله ابن مسعود كما جاء في روايته" يكشف الرحمن عن ساقه ". وكذا ورد عن الصحابي الجليل أبي هريرة بنفس المعنى. انظر *الرد على الجهمية*. 1414هـ. الإمام ابن منده. تحقيق على بن محمد الفقيهي. مكتبة الغرباء الأثرية. ط3. ص 35.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وعبادته وحده لاشريك له أقرب الوسائل. فكيف يتوهم من لله ولرسوله ودينه في قلبه أدنى وقار أن يكون الرسول – صلى الله عليه وسلم- قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم، ولم يتكلم بما فيه الصواب"[384].

يقول الإمام الشوكاني:" وقد أغنانا الله- سبحانه- في تفسير هذه الآية بما يصح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم[385] – وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء"[386].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال:" أي إذا كان يوم القيامة، وانكشفَ فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخُلُ تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاءِ بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبِهُها شيءٌ"[387].

فهو يثبت الساق لله- تعالى – دون تأويل لها فالله- جل شأنه- لا يشبهه شيء.

أما احتجاج من أوّل هذه الصفة – صفة الساق- متكئاً على كلام ابن عباس- رضي الله عنهما- فيها وهو من أقوى ما استدل به المؤولون لهذه الآية، فقد قال الشيخ سليم الهلالي: في سند حديث ابن عباس أسامة بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف جداً كما قرره الهيثمي في " مجمع الزائد 64/1 " ثم ذكر طرق الحديث المختلفة وقال في خلاصة البحث فيها: إن الأسانيد المروية عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ لا تقوم بها الحجة؛ لأنها كلها ضعيفة. فإن قيل: هلاّ جعلتموها من باب الحسن لغيره. قلت: إنها ضعيفة ضعفاً لا ينجبر، ولا يزول بمجيئه من وجه آخر للآتي: أن بعضها ضعيف ضعفاً شديداً، وأن بعضها ذات علة واحدة وهي الانقطاع. وبالجملة؛ فقد اتفقت كلمة أئمة الجرح والتعديل على تضعيفه، فإنك إن فتشت كتب الرجال؛ فلن تجد إلا مضعفاً، ولذلك قال الذهبي في الكاشف

---

384. الهلالي، سليم بن عيد. 1418هـ1997م. *المنهل الرقراق في تخريج ما روي عن الصحابة والتابعين في تفسير " يوم يكشف عن ساق" وإبطال دعوى اختلافهم فيها*. السعودية: دار ابن الجوزي. ط2. 7، 8.

385. يعني حديث أبي سعيد الخدري وهو في صحيح البخاري وسبق تخريجه هامش 377.

386. الشوكاني، العلامة محمد بن علي بن محمد.د.ت. *فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير*. بيروت: دار الفكر. د.ط. 278/5.

387. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر ت 1376هـ. 1422هـ . 2002م. *تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن*. ص 838.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

57/1:" وضعفوه" قلت: فهو ضعيف جداً[388]. وقد يكون الذي روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما– في تفسير اللفظ على مقتضى اللغة وهو أن الساق في اللغة هو الشدة، ولم يقصد بذلك تفسيره في صفات الله – تعالى– في موجب الشرع، فكيف وقد صح الحديث في إضافة الساق لله تعالى فلا موجب حينئذ لتأويل بلا مسوغ. وقال العلاّمة الألباني –رحمه الله– : ووجدتُ للحديث شاهداً آخر مرفوعاً و هو نصٌ في الخلاف السابق في الساق وإسناده قوي فأحب أن أسوقه إلى القراء لعزته و صراحته و هو " إذا جمع الله العباد بصعيد واحد ....هل تعرفونه ؟ فيقولون : إذا تعرف إلينا عرفناه ، فيكشفُ لهم عن ساقه فيقعون سجوداً وذلك قول الله تعالى "يوم يكشف عن ساق و يدعون إلى السجود فلا يستطيعون" و يبقى كلُ منافق فلا يستطيع أن يسجُدَ،ثم يقودهم إلى الجنة " قلتُ: وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الصحيح؛ إلا ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم متابعة، ثم وجدت له شاهداً آخر عن أبي هريرة مختصراً بلفظ " : يوم يكشف عن ساق " قال: يكشف الله عز وجل عن ساقه"[389]. قال الشيخ مشهور:"وعلى أيّة حال لا يُقدّم قول الصحابي على قول الرسول – صلى الله عليه وسلم– وتحمل مخالفة الصحابي للحديث المرفوع على عدم العلم به لما عرف عنهم من التمسك بالسنن"[390].

وقال العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد:" الآية فيها إثبات صفة الساق لله –سبحانه وتعالى– كما في حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– وخير ما يُفسّر فيه القرآن بعد القرآن السنة النبوية والحديث صريح في إثبات صفة الساق لله سبحانه وتعالى"[391].

---

388. الهلالي، سليم بن عيد. 1418هـ 1997م. *المنهل الرقراق في تخريج ما روي عن الصحابة والتابعين في تفسير " يوم يكشف عن ساق"وإبطال دعوى اختلافهم فيها*.17.20 بتصرف.

389. الألباني، محمد ناصر الدين.د.ت. *السلسلة الصحيحة* حديث رقم 584. 2/ 129.

390. مشهور، مشهور بن حسن آل سلمان. 1415هـ. *الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي . رحمه الله . في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات*.دار الهجرة.ص 118.

391. أبوزيد، بكر أبو زيد 1414هـ. *التحذير من مختصرات الصابوني*. دار العاصمة. د.ط.ص 350.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

أقوال الأشاعرة والمعتزلة في صفة الساق:

تباينت أقوال بعض الفرق في مسألة الساق، واختلفت مع أهل السنة والجماعة في هذه المسألة كغيرها، فعدلوا عن القول بالإمرار دون تأويل، وتأولوا الصفة بأن المراد هو الشدة وتفاقم الأمر ونحو هذا، فقالوا أقوالاً أذكر منهم: العلامة محمود الزمخشري المفسر اللغوي الكبير المعتزلي قال:" معنى يوم يُكشف عن ساق في معنى: يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثمّ ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل"[392]. وقال القرطبي المفسر الفقيه المالكي الأشعري: "أي تكشف الشدة أو القيامة"[393]. وقال أيضاً: " فأما ما روي أن الله يكشف عن ساقه فإنه عز وجل يتعالى عن الأعضاء والتبعيض، وأن يكشف ويتغطى، ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره، وقيل: يكشف عن نوره عز وجل، وروى أبو موسى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله تعالى: ﴿عَنْ سَاقٍ﴾ قال: يكشف عن نور عظيم يخرون له سجداً "[394]. وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله –:" وأما الساق؛ فجاء عن ابن عباس في قوله تعالى: (يوم يكشف عن ساق) قال : عن شدة من الأمر، والعرب تقول: قامت الحرب عن ساق "[395].

صفة الاستواء على العرش، وهي ثابتة لله – تعالى – بنص الكتاب، وصحيح السنة، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾[396]. وهنا سلك الحافظ أيضاً مسلك أئمة الدين المعتبرين من سلف الأمة الصالح، وعلماء المسلمين المحققين، الذين نأوا بأنفسهم عن التأويل الغير محمود في باب الأسماء والصفات.

---

392. الزمخشري، العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ت538 هـ. 1407هـ. *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل* 594/4.

393. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين ت671هـ. 1423هـ 2003 م. *الجامع لأحكام القرآن*. 248/18.

394. نفسه 249/18.

395. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني ت 852هـ. د.ت. فتح الباري. 428/13.

396. القرآن الكريم. سورة الأعراف. 7: 54.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ففي سورة الأعراف قال الحافظ ابن كثير في ذلك: وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[397] بل الأمر كما قال الأئمة – منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري –: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر"[398]. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله – تعالى – ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله – تعالى – ونفى عن الله – تعالى – النقائص، فقد سلك سبيل الهدى[399].

وأما في سورة طه فقد قال الحافظ ابن كثير: "وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل[400].

وإذا تأملنا ذلك علمنا حينئذ عقيدة الحافظ ابن كثير في صفات الحق – جلا وعلا – وأنه على مذهب السلف في إثبات الصفات بلا تعطيل كما فعل أهل التأويل حينما عطلوا هذه الصفة، موظفاً ومتخذاً من الأحاديث الصحيحة مع ذكر أسانيدها كاملة دليلاً إلى ما يذهب إليه من معتقد كما مر قبل قليل من حديث أبي سعيد الخدري وهو عند الإمام البخاري، على خلاف أهل الرأي والمعقول، قال ابن القيم عن المبتدعة لما زاد المبتدعة حرفاً صُرفوا عن الحق صرفاً[401]، ويقصد زيادتهم بتأويل فاسد فقالوا استوى استولى

397. القرآن الكريم. سورة الشورى. 42: 11.

398. وكلام نعيم بن حماد هذا يعبر عن مسألة من مسائل الخلاف القديم بين أهل الحديث والأثر وأهل الكلام في باب الأسماء الصفات.

399. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1427هـ. 2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 205/2.

400. نفسه. 134/3.

401. نعم هم لم يزيدوا حرفاً في نص الآية؛ وإنما زادوا ذلك في تفسير النص، وهذا ما قصده ابن القيم. رحمه الله . من الزيادة.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

فزادوا اللام فغيروا المعنى وحرفوا الكلم عن مواضعه، وهذا محال أن يكون المراد من اللفظ، فاستوى كما يُقرّره العلاّمة السعدي يعني ثلاث معان، بحسب السياق فقال ما نصه: لفظ ﴿اسْتَوَى ﴾ في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُدِّيَ بعلى كان معناه العلو والارتفاع ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وإن عُدِّيَ بإلى فمعناه قصد؛ كقوله: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ وإن لم يعدّ بشيء فمعناه كَمُل كقوله تعالى:﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ وقال أيضاً في معنى استوى:﴿اسْتَوَى﴾ استوى استواءً يَليقُ بجلالِهِ، وعظمته،وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية[402]. وفي قوله تعالى:﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾[403].

قال الشيخ السعدي في تفسيرها:" أي: أخرج فراخه فوازرته فراخُهُ في الشباب والاستواء {فاستغلظَ} ذلك الزرع؛ أي: قوي وغلظ، ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ جمع ساق، ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة – رضي الله عنهم – هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوّة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوّة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخّر إسلامه قد لَحِقَ الكبير السابق، ووازره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخْرَجَ شَطأه فآزره فاستغلظ[404]. فأراد هنا بالاستواء التمام والكمال مستعيناً بما يخرج معه في القوة والثبات. وهو وجه من وجوه التشبيه وضرب الأمثال في فهم الاستواء على هذا المعنى المقصود في الآية. وقال الدكتور محمد أبوشهبة في بعض الصفات مثل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾،﴿وجاء ربك﴾ ﴿ويبقى وجه ربك﴾، ﴿يد الله فوق أيديهم﴾. والعلماء في هذا على فريقين: السلف وهؤلاء يؤمنون بالآيات المتشابهة كما وردت من غير تأويل ولا تشبيه، ولا تكييف مع اعتقاد تنزيه الله عن ظواهرها المعروفة لنا، والخلف: هؤلاء أولوا هذه الآيات على

402. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر ت 1376هـ. 1422هـ2002م. تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن .ص271.

403. القرآن الكريم.سورة الفتح.48: 29.

404. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر ت 1376هـ. 1422هـ2002م. تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن. ص 764.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

حسب المعروف من اللغة، وقواعد الشرع والعقل والأول هو الذي كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم- والصحابة، والتابعون والسلف. وقد قالوا: إن مذهب السلف أحكم، ومذهب الخلف أسلم، فلنكن على ما كان عليه السلف رضوان الله عليهم[405].

ويرى الباحث: أن الحق ما قرّره أهلُ العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومن ذهب مذهبهما من أئمة الدين وعلماء المسلمين سلفاً وخلفاً من أن مذهب السلف أحكم وأسلم، فالقرآن نزل عليهم غضاً طرياً، ونزل بلغة كانوا أفصح من تكلم بها ممن خلفهم، وهم الذين عاصروا النبي – صلى الله عليه وسلم – فكانوا يسألونه فيما أشكل عليهم، أفبعد هذا يكون من أتي من بعدهم أعلم وأحكم وأسلم منهجاً؟!!

قال ابن عبد البر: " أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك، وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ويزعمون أن من أقربها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به الكتاب والسنة وهم أئمة الجماعة"[406]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "مما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد من جهة النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل لغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر؛ ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض"[407].

صفة الأصابع الخمسة: أورد الحافظ ابن كثير كلاماً كثيراً يثبت هذه الصفة على مذهب السلف الصالح مستدلاً بصحيح الحديث فقال في قول الله – تعالى-: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

405. أبو شهبة، محمد بن محمد د.ت. *الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير*. الناشر مكتبة السنة. ط4. ص348.

406. ابن عبدالبر، الحافظ أبو عمر يوسف النمري ت463هـ. 1387 هـ 1967م. *التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد*.د.ط. 145/7.

407. ابن تيمية، شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم. 1426هـ 2005 م. *مجموع الفتاوى*. 286/7.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[408] يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق عظمته. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما-: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله — تعالى- عليهم، فمن آمن أن الله على كل شي قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره. وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف. قال البخاري في قوله:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله -عز وجل- يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن عبد الله ابن مسعود -رضي الله عنه - بنحوه[409]. وأورد حديث البخاري قال: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة -رضي

---

408 . القرآن الكريم. سورة الزمر. 39: 67.

409. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل.1422هـ. *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم. وسننه وأيامه*. كتاب التفسير.باب قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حديث رقم 4811 .126/6. ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر.1427 هـ2006. *تفسير القرآن العظيم*. 56/4.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الله عنه- قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول:((يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض))[410].

مسألة القدم النوعي للعالم وأقوال العلماء فيها: أولاً شيخ الإسلام ابن تيمية:

لقد تفرَّد ابن تيمية -رحمه الله تعالى - بكلام في مسألة قدم العالم حتى أنكر عليه أهل عصره ومن جاء بعدهم، وبالغ بعضهم فكفَّروه بها. ويحسن بداية أن أنقل كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية وهو يقرر حقيقة عظيمة بكل دقة ووضوح لا لبس فيه ولا غموض فيقول:" كل ما سوى الرب حادث كائن بعد أن لم يكن، وهو سبحانه المختص بالقدم والأزلية، فليس في مفعولاته قديم وإن كان هو لم يزل فاعلاً، وليس معه شيء قديم بقدمه، بل ليس في المفعولات قديم البتة، بل لا قديم إلا هو سبحانه، وهو وحده الخالق لكل ما سواه، وكلما سواه مخلوق، كما قال سبحانه:﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ "[411].

قال الدكتور سيد السيلي: وفي هذا الشأن قد يُقال لابن تيمية: إن من قام به الحادث فهو حادث والحق سبحانه وتعالى ثبت قدمه فبطل قيام الحادث به! فيجيب عن ذلك قائلاً:" وأما القول بأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث: كلام مجمل فيه حق وباطل فيقبل منه ما كان صحيحاً ويرد منه ما كان باطلاً. وتفصيله أن يقال: إن كان مقصودكم بالحوادث حوادث محصورة معينة -علم أن لها بداية ونهاية- لاشك أن ما لا يخلوا من هذا النوع الحادث فهو حادث، بخلاف ما لا يخلوا جنس الحوادث المتعاقبة واحدة بعد أخرى إلى غير نهاية فهذا لا يكون ما لا يخلوا منه حادثاً عند كثير من العقلاء[412]. والحق الذي نجزم به أن المخلوقات حادثة من جبال وشجر ودواب وإنسان، وهي أفراد حادثة، لكن نوع خلق المخلوقات قديم،

---

410. نفسه، باب قوله: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ من حديث أبي هريرة حديث رقم 4812.

126/6. ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1427هـ2006. *تفسير القرآن العظيم*. 56/4.

411. القرآن الكريم.سورة الزمر.39: 62. ابن تيمية. أحمد بن عبد الحليم أبو العباس.1391هـ. *درء تعارض العقل والنقل*. الرياض: دار الكنوز الأدبية. تحقيق محمد رشاد. د. ط. 289/8.

412.السيلي، سيد عبد العزيز. 1413هـ 1993م. *العقيدة السلفية بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية*. القاهرة: دار المنار للطبع والنشر والتوزيع.د.ط. ص 350.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

فالخلق لم يكن حادثاً بحدوث الجبال بل هو أقدم وهكذا، فمراد القائلين بحدوث النوع يقتضي أن صفة الخلق حادثة، وهو مقتضى تعطيل الرب سبحانه.

ومن هنا فرّق شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بين النوع والفرد وهو محور الرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، والرد على من خالف شيخ الإسلام في قدم النوع لا الآحاد. وذهب الفلاسفة إلى الجانب المعاكس تماماً حيث أثبتوا قدم العالم وأنه قديم بقدم الله (الصانع)! وهذا أحد الأمور التي كفرت بها الفلاسفة. فأن يقول قائل بقدم العالم أو بعض أجزائه بالشخص فهذا كفر لا إشكال فيه، وإما أن يقول بقدم العالم بالنوع بمعنى أن الله لم يزل يخلق عالماً ثم يفنيه وهكذا إلى ما لا نهاية فهذا هو الذي قال به المحققون. وابن تيمية لم يثبت حوادث لا أول لها وإنما أجاز هذا الاحتمال العقلي لإبقاء حجج الخصمين. وإن مما يشرح الصدر إلى تبرئه ساحة ابن تيمية من القول بالقدم النوعي للعالم وإثبات حوادث لا أول لها أن هذه الأمور لم ترد في شيء مما صنفه مبيناً عقيدته كالعقيدة الواسطية والحموية والرسالة التدمرية وعقيدة الفرقة الناجية وغيرها بل وُجد ذلك كله في أثناء مناقشة الخصمين وإيراد حجج.

ثانياً الحافظ ابن كثير: إذا تأملنا في قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[413]. وما قاله العلماء فيها علمنا أن تجدد المخلوقات ليس على الله بعزيز فتبدل النوع أمر معلوم أما الفرد فلا، وإن كان المراد من النص السابق إنما يكون يوم القيامة، كما قال الحافظ ابن كثير: أي: وعْدُه هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي[414]، ليس فيها معلم

413. القرآن الكريم. سورة إبراهيم عليه السلام. 14: 48 .

414. عفراء أي بياض ليس بالناصع، وقرصة النقي بفتح النون كسر القاف أي الدقيق النقي من الغش والنخال. ابن حجر. أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني ت 852هـ. د.ت. فتح الباري. 375/11.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

لأحد)) وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عن هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال: ((على الصراط)). قال الحافظ ابن كثير في تخريج هذا الحديث:"رواه مسلم منفردًا به دون البخاري، والترمذي، وابن ماجه، من حديث داود بن أبي هند، به وقال الترمذي: حسن صحيح"[415].

ثالثاً الفخر الرازي: وأما الفخر الرازي فقد قال: اعلم أن التبديل يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة أخرى. والثاني: أن تفنى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى، والدليل على أن ذكر لفظ التبدل لإرادة التغير في الصفة جائز، أنه يقال بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى:﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات ﴾[416] ويقال: بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى، ويقال: تبدل زيد إذا تغيرت أحواله، وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل في الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير، ومنه قوله: ﴿ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾[417] وقوله: ﴿ بدلناهم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾[418] إذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففي الآية قولان:

القول الأول: أن المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات. قال ابن عباس – رضي الله عنهما-: هي تلك الأرض إلا أنها تغيرت في صفاتها، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى، فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: يبدل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظي فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وقوله:﴿ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ أي تبدل السموات غير السموات، وهو

415. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1420هـ 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 518/4.

416. القرآن الكريم.سورة الفرقان.25: 70 .

417. القرآن الكريم.سورة النساء.4: 56 .

418. القرآن الكريم.سورة سبأ.34: 16 .

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

كقوله عليه السلام: ((لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده))[419]. والمعنى: ولا ذو عهد في عهده بكافر، وتبديل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وكونها أبواباً، وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان.

والقول الثاني: أن المراد تبديل الذات. قال ابن مسعود- رضي الله عنه- : تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة، فهذا شرح هذين القولين، ومن الناس من رجح القول الأول قال لأن قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ﴾ المراد هذه الأرض، والتبدل صفة مضافة إليها، وعند حصول الصفة لا بد وأن يكون الموصوف موجوداً، فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الأرض وجب كون هذه الأرض باقية عند حصول ذلك التبدل، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل، وإلا لامتنع حصول التبدل، فوجب أن يكون الباقي هو الذات. فثبت أن هذه الآية تقتضي كون الذات باقية، والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون: إن عند قيام القيامة لا يعدم الله الذوات والأجسام، وإنما يعدم صفاتها وأحوالها[420]. وإن كانت التبدل للأرض والسماوات الوارد في هذه الآية كائن يوم القيامة لا محالة، وليس المقصود أن ذلك في الدنيا فإن محل الشاهد منها أن الأزلي لا يطرأ عليه التبدل، وطالما أن السموات والأرض سيطرأ عليهما تبدل وتغير فقد انتفى عن العالم القدم وثبت في حقه الحدوث.

---

419. السجستاني، أبوداوود سليمان بن الأشعث.د.ت. *سنن أبي داوود*.كتاب الديات. باب أيقاد المسلم بالكافر؟ حديث رقم 4530. 588/2. قال عنه الألباني حسن صحيح. صحيح وضعيف سنن أبي داود 2/1.

420. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي. الملقب بفخر الدين الرازي. د.ت. *مفاتيح الغيب*.د.ط.271/9.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

المبحث الرابع

نماذج من منهج ابن كثير السنني في أبواب العبادة والتشريع

ثبت في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))[421]. هذا الحديث العظيم يدلنا على فضل الفقه في الدين؛ لأن الله– سبحانه –خلق الثقلين لعبادته، ولا يمكن أن تعرف هذه العبادة إلا بمعرفة الفقه الإسلامي وأدلته، وأحكام الإسلام وأدلته، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة العلماء الذين يعتمد عليهم في هذا الباب من أئمة الحديث والفقه الإسلامي، والذين يرجع إليهم في ذلك. والحافظ ابن كثير أحد هؤلاء الأعلام الذين هم أئمة الدين، وعلماء المسلمين، الذين جمعوا بين علوم شتى، وفنون عدة، فهو المفسر، والمحدث، والفقيه، والمؤرخ، رحمه الله – تعالى – رحمة واسعة.

وفي هذا المبحث سوف أتناول – بما ييسره الله تعالى – من دراسة ونظر في تفسيره لآيات العبادات وأحكام التشريع، وعمله مع الأدلة مما ثبت نقله وصح خبره في تفسير القرآن العظيم؛ واستشهاده بأقوال العلماء، وترجيح للصحيح على غيره؛ لاسيما وقد عاصر النهضة العلمية، ولازم كوكبة عظيمة من علماء الأمة، الذين تأثر بهم تأثراً كبيراً، فخلّف هذا الموروث العظيم، وهذا الفقه الكبير، الذي يدل على سعة علم، وموفور ذهن متوقد، وحافظة سيالة.

ويتميز المنهج السنني عند ابن كثير في أبواب العبادة والتشريع بعدة ميزات نذكر منها:

الميزة الأولى ((تأصيل مسائل في المذهب الشافعي)) :

المسألة الأولى: ففي سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[422].

---

421. البخاري، أبو عبدالله محمد إسماعيل.1422هـ. *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله . صلى الله عليه وسلم. وسننه وأيامه*. كتاب العلم. باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. من حديث معاوية – رضي الله عنه. حديث رقم 71. 25/1.

422 . القرآن الكريم. سورة البقرة.2: 158.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

فبعد أن ذكر الحافظ ابن كثير سبب نزول الآية، وهو تحرّج الصحابة من الطواف حول الصفا والمروة إذ فيه مشابهة لفعل المشركين، قال: قال الشعبي: كان إساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، فكانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله – عز وجل–: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، ثم ذكر أحاديث صحاحاً في طوافه عليه السلام بهما، وأمره بالطواف حولهما، كما عند مسلم وأحمد.

وذكر الخلاف الفقهي في مسألة حكم الطواف حولهما فقال مع ترجيحه في المسألة بما وافق الدليل عنده: وقد استُدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك. وقيل: إنه واجب، وليس بركن فإن تركه عمدًا أو سهواً جبره بدم، وهو رواية عن أحمد وبه تقول طائفة. وقيل: بل مستحب، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين، وروي عن أنس وابن عمر وابن عباس، وحكي عن مالك في العتبية، قال القرطبي: واحتجوا بقوله: ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ ثم رجح الحافظ ابن كثير القول بأنه ركن لدلالة اللفظ الصريح الصحيح الموافق للفعل الثابت عنه عليه السلام، فقال: والقول الأول أرجح؛ لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: ((لتأخذوا عني مناسككم))[423]. فكل ما فعله في حَجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم، وقد تقدم قوله عليه السلام: ((اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي))[424].

المسألة الثانية: وجوب الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

[423]. السجستاني، أبوداود سليمان بن الأشعث ت 275هـ. *سنن أبي داوود*. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر. من حديث جابر بن عبدالله. رضي الله عنه. حديث رقم 1970. 201/2.قال عنه الألباني صحيح. صحيح وضعيف سنن أبي داود 2/1.

[424]. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1427هـ . 2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 173/1، 174.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

قال الله- تبارك تعالى-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[425] هذه الآية وقف ابن كثير عندها طويلاً، وتكلم فيها بما يقارب العشر صفحات، وأورد فيها كماً هائلاً من الأحاديث النبوية، والآثار المروية من أقوال الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، وذكر ما ورد في فضل الصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم- من أحاديث وآثار، وذكر أيضاً ما ورد في ترك ذلك من وعيد شديد. فمن جملة ما ذكر الحافظ ابن كثير في إحدى مسائلها، وهي مسألة حكم الصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في التشهد في الصلاة، حديثاً رواه مسلم ولفظه:" قال مسلم حدثنا يحي التميمي قال: قرأت على مالك، عن نُعَيم بن عبد الله المجمِّر، أخبرني محمد بن عبد الله بن زيد الأنصاري – قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أُرِيَ النداء بالصلاة أبي مسعود الأنصاري – قال: أتانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ونحن في مجلس سعد بن عُبَادة، فقال له بَشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله – صلى الله عليه وسلم- حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: ((قولوا: اللهمّ صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد عَلِمْتُمْ))[426] قال ابن كثير: ومن هاهنا ذهب الشافعي- رحمه الله تعالى- إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته. وقد شَرَع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنّع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تَعَسّف القائل في رده على الشافعي، وتكلّف في دعواه

425 . القرآن الكريم.سورة الأحزاب.33: 56.

426. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري .د.ت. صحيح مسلم. كتاب الصلاة. باب الصلاة على النبي . صلى الله عليه وسلم – بعد التشهد. من حديث بشير بن سعد. حديث رقم405. 1/305.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الإجماع في ذلك، وقال ما لم يحط به علماً، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم: ابن مسعود، وأبو مسعود البدري، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان. وإليه ذهب الشافعي، لاخلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقي به، وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي –رحمهم الله– حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه – صلى الله عليه وسلم– كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن حكاه البَنْدنيجيّ، وسُلَيم الرازي، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، وحكوا الإجماع على خلافه، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث، والله أعلم.[427] والحافظ ابن كثير يقول في هذه المسألة بوجوب الصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الصلاة كما هو قول الإمام الشافعي استنباطاً من خلال ظاهر النص القرآني وتفسير الحديث من جماعة من الصحابة والتابعين وأئمة المذهب وعلماؤه؛ بل وقول الإمام أحمد المتأخر وبعض أئمة الحنابلة كما ذكر هو عنهم. وفي ختام تفسير الآية ذكر ابن كثير كلاماً للإمام النووي– رحمه الله – قال فيه:قال النووي: إذا صلى على النبي – صلى الله عليه وسلم– فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: "صلى الله عليه فقط"، ولا "عليه السلام" فقط. قال ابن كثير: وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فالأولى أن يقال صلى الله عليه وسلم تسليماً[428].

427. ابن كثير،أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1427هـ . 2006م. *تفسير القرآن العظيم*. 3/473، 474.

الميزة الثانية:مخالفة المذهب الشافعي في بعض المسائل

إذا تتبعنا تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير وجدنا التطابق العام والتوافق التام مع إمام المذهب الإمام محمد إدريس الشافعي وأئمته في إيراد النصوص والأحاديث كأدلة على المسائل الفقهية، ومسائل الخلاف بين الحافظ ابن كثير ومذهب الإمام الشافعي وأئمته تكاد تكون معدومةً إلا فيما ندركما في مسألة الطلاق الثلاث وكونها واحدة، وهو قول الإمام الشافعي- رحمه الله – الذي قال بأن الطلاق الثلاث يقع ثلاثاً، فقد قال الحافظ ابن كثير بخلاف هذا وأيد ما ذهب إليه بعض الحنابلة ومنهم شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية من أن الطلاق ثلاثاً بفم واحدة فقط، وفيما سوى هذا فلم أجد إلا المتابعة والتأييد لما عليه المذهب وأئمته. والملاحظ أن هذه المسألة لم يتعرض لها ابن كثير في موطنها الأصلي وهو في سورة الطلاق ، وأورد في ذلك الموضع من سورة الطلاق خلاف ما يقول به ابن كثير فذكر حديثاً رواه الإمام أحمد ابن حنبل وفيه: أن فاطمة بنت قيس، طلقها زوجها على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – فبعثه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سَرية. قالت: فقال لي أخوه: اخرجي من الدار. فقلت: إن لي نفقة وسكنى حتى يحل الأجل. قال: لا. قالت: فأتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقلت: إن فلاناً طلقني، وأن أخاه أخرجني ومنعني السكنى والنفقة، فأرسل إليه فقال: ((ما لك ولابنة آل قيس)) قال: يا رسول الله، إن أخي طلقها ثلاثاً جميعًا. قالت: فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: ((انظري يا بنت آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى. اخرجي فانزلي على فلانة)). ثم قال: "إنه يُحَدّث إليها، ((انزلي على ابن أم مكتوم، فإنه أعمى لا يراك)) وذكر تمام الحديث[429].

429. نفسه. 144/8.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

الميزة الثالثة: استنباط الأحكام من الحديث في فهم الآيات

ففي سورة المائدة عند ذكر المحرمات في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[430] قال ابن كثير: "وقوله: ﴿ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ يعني: إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم هاهنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾[431] أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير، حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد، وفي صحيح مسلم، عن بُرَيدة بن الخصيب الأسلمي – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:((من لعب بالنردشير[432] فكأنما صَبَغَ يده في لحم الخنزير ودمه))[433] فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به، وفيه دلالة على شُمُول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره"[434]. واستدل ابن كثير أيضاً بما في الصحيحين: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام)). فقيل: يارسول الله،

---

430. القرآن الكريم.سورة المائدة.5: 3.

431. القرآن الكريم.سورة الأنعام.6: 145.

432. قال النووي:" قال العلماء النردشير هو النرد، فالنرد عجمي معرب، وشير معناه حلو، وهذا الحديث حجة للشافعي والجمهور في تحريم اللعب بالنرد" المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي. د.ت.الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. ط2. 1392. 15/15.

433. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله ت 256. 1409هـ 1989. الأدب المفرد. بيروت. لبنان: دار البشائر الإسلامية. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. من حديث بريدة عن أبيه. حديث رقم 1271. 434/1.

434. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1427هـ2006م. تفسير القرآن العظيم. 8/2.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويَسْتَصبِحُ بها الناس؟ فقال: ((لا هو حرام))[435]. وإن كان المفهوم من منطوق النص أن اللحم هو المحرم دون غيره من أجزاء الخنزير كونه ذكر لفظ اللحم فقط كما قال به البعض من المسلمين؛ إلا أن اللفظ يفيد العموم كما قال محمد بن حزم الظاهري في المحلى:" لا يحل أكل شيء من الخنزير لا لحمه ولاشحمه ولا جلده ولا عصبه ولا غضروفه ولا حشوته ولا مخه ولا عظمه ولا رأسه ولا أطرافه ولا لبنه ولا شعره، الذكر والأنثى. الصغير والكبير سواء ولا يحل الانتفاع بشعره لا في خرز ولا غيره"[436]. وقال الواحدي الشافعي في قوله تعالى: ﴿ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ يعني: الخنزير بجميع أجزائه، وخص اللحم لأنه المقصود بالأكل[437]. وقال الألوسي الشافعي المذهب أيضاً:" إقحام اللحم لما مر، وأخذ داوود وأصحابه بظاهره فحرموا اللحم وأباحوا غيره، وظاهر العطف أنه حرام حرمة غيره[438]. وهذا ما ذهب إليه القرطبي في تفسيره فقال:" لا خلاف أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر فإنه يجوز الخرازة به. وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عن الخرازة بشعر الخنزير، فقال: "لا بأس بذلك" ذكره ابن خويز منداد، قال: ولأن الخرازة على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- كانت وبعده موجودة ظاهرة، لا نعلم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أنكرها ولا أحد من الأئمة بعده. وما أجازه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فهو كابتداء الشرع منه"[439].

---

435. السجستاني، أبوداد سليمان بن الأشعث ت 275هـ. *سنن أبي داوود*. كتاب الإجارة. باب في ثمن الخمر والميتة من حديث جابر بن عبد الله. رضي الله عنهما. حديث رقم 3486. 301/2. قال عنه الألباني صحيح . صحيح وضعيف سنن أبي داود.

436. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي الظاهري ت456هـ. *المحلى*. كتاب ما يحل أكله وما يحرم أكله. الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 388/7.

437. ابن عطية، أبو الحسن علي بن أحمد الو احدي ت 468هـ. 1415هـ .1995م. *الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. تحقيق صفوان عدنان داوودي. دمشق: دار القلم. بيروت: الدار الشامية. 145/1.

438. الألوسي، العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي ت 1270هـ. *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. تحقيق سيد عمران. القاهرة: دار الحديث. 324/3.

439. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين ت671هـ. 1423هـ 2003 م. *الجامع لأحكام القرآن*. المحقق: هشام سمير البخاري. المملكة العربية السعودية. الرياض: دار عالم الكتب. 223/2.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ويرى الباحث أن هذا الكلام كله والبيان إنما هو من باب إعمال الأحاديث في فهم القرآن ودليل على الفقه والاستنباط الحكمي السديد، فما حُرّم لمسه فمن باب أولى يحرم تعاطيه وأكله، وهو ما أشار إليه ابن كثير وغيره في هذا التحليل الفقهي من خلال النص النبوي المبين للتغليظ في شأن المحرمات. بخلاف فهم النص على ظاهره وهو كون المحرم اللحم دون غيره من أجزاء الخنزير، وذلك لما تقتضيه الأدلة من الأحاديث، وأساليب اللغة العربية، فقد يُذكر الجزء ويُراد به الكل كما في قوله تعالى: ﴿ فتحرير رقبة ﴾ والمراد تحرير المملوك كله لا رقبته فقط. وعلى هذا فيحمل التحريم للحم الخنزير تحريمه جميعاً كما سبق بيانه من كلام أهل العلم. وهذا فقه واستنباط واستدلال قويين من الإمام الحافظ ابن كثير- رحمه الله- في إدراك أسرار الألفاظ، واستخراج المعاني المطلوبة في النصوص الشرعية.

الميزة الرابعة: ترجيح قول من أقوال الشافعي

مسألة العاجز عن صيام رمضان لكبره: قال الحافظ ابن كثير:" وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جِدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسنّه، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو أحد قولي الشافعي. والثاني- وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء -: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف[440].

440. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1427هـ2006م. *تفسير القرآن العظيم* . 500/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

الميزة الخامسة:مسائل في موافقات ابن كثير للمذهب الشافعي وبيانه للحجج

المسألة الأولى جواز أكل لحم الخيل:

فعند تفسيره لقول الله- تعالى-:﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[441] بيّن الحافظ ابن كثير المقصد الأكبر لهذه الدواب وهو الركوب والزينة، ثم ذكر مسألة فقهية خلافية وهي حكم أكل لحم الخيل، ورأي الإمام أبي حنيفة في تحريمها ومن وافقه كابن جرير الطبري، ثم ذكر الحافظ الراجح في هذه المسألة من خلال أقوال الأئمة الثلاث ومن خلال نصوص الأحاديث الصحيحة الصريحة ومنها: حديث المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، فقَرِم أصحابنا إلى اللحم، فسألوني رَمَكة، فدفعتها إليهم فَحبَلوها وقلت: مكانكم حتى آتي خالدًا فأسأله. فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم- غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهود، فأمرني أن أنادي: "الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم" ثم قال: "أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها، وحرام عليكم لحوم الأتن الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير" والرمكة: هي الحِجْرَة. وقوله: حَبَلوها، أي: أوقفوها في الحبل ليذبحوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران.

وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم. فلو صحّ هذا الحديث لكان نصًا في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاومُ ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن في لحوم الخيل[442]. ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول

---

441 . القرآن الكريم.سورة النحل.16: 8 .

444. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل 1422هـ.الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وسننه وأيامه.كتاب المغازي. باب غزوة خيبر. حديث رقم 4219. 136/5. مسلم. مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري.د.ت. صحيح مسلم. كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان. باب في أكل لحوم الخيل. حديث رقم 1941 .1541/3.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

الله –صلى الله عليه وسلم – عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل، وفي صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: نحرنا على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة[443]. قال ابن كثير:"فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهورُ العلماء: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم"[444].

المسألة الثانية إتيان النساء بعد طهرهن:

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾[445] فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة، لقوله: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ وليس له في ذلك مستند؛ لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعلماء الأصول، منهم من يقول: إنه للوجوب كالمطلق. وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب، وفيه نظر. والذي ينهض عليه الدليل أنه يُرَدّ الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجبًا فواجب، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾[446] أو مباحًا فمباح، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾[447] وقوله تعالى:﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾[448] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالي وغيره، واختاره بعض أئمة المتأخرين، وهو الصحيح[449].

---

443. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري.د.ت. صحيح مسلم. كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان. باب في أكل لحوم الخيل. حديث رقم 1942. 3/1541.

444. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1427هـ2006م. تفسير القرآن العظيم. 4/558، 559.

445 . القرآن الكريم.سورة البقرة.2: 222.

446. القرآن الكريم.سورة التوبة.9: 5 .

447. القرآن الكريم.سورة المائدة.5: 2 .

448. القرآن الكريم.سورة الجمعة.62 :10

449. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1427هـ .2006م. تفسير القرآن العظيم 1/588.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

المسألة الثالثة الأكل من المحرمات عند الضرورة:

وفي قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[450] نرى الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الأحاديث في بيان هذه المسألة، يستشهد بأقوال أئمة المذهب الشافعي فيقول: وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة. قال أبو الحسن الطبري – المعروف بالكيا الهراسي رفيق الغزالي في الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا؛ كالإفطار للمريض في رمضان ونحو ذلك[451].

ويرى الباحث أن هذه الرؤية الفقهية الحديثية للحافظ ابن كثير فيها دلالة على إعمال للنصوص من الكتاب والسنة وجمع بين الأحاديث فيما يمكن الجمع فيه، وترجيح بعضها على بعض بحسب القوة والضعف والنسخ وفق ضوابط تخريج الأحاديث، وربط الفقه بالحديث لتفسير القرآن العظيم مع شروح من خلال أقوال العلماء عامة، وعلماء المذهب الشافعي خاصة.

الميزة السادسة: متابعته لشيخ الإسلام ابن تيمية في بعض المسائل

من مواقفه المؤازرة والمتابعة لشيخه ابن تيمية في المسائل الإعتقادية، يقول الحافظ ابن كثير في ردّه على من زعموا أن ابن تيمية يُحرّم زيارة القبور قال:" قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال: وإنما المحز جعله زيارة قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – وقبور الأنبياء – صلوات الله وسلامه– عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً بها، فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام، فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل، والسفر إلى مجرد زيارة القبور، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل؛ بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في هذه الوجه في الفتيا، ولا قال إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول

---

450 . القرآن الكريم. سورة البقرة.2: 173.

451. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1427هـ2006م. *تفسير القرآن العظيم* /483.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

الرسول" زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة " والله - سبحانه وتعالى- لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[452]. وفي بيان حال الأحاديث ودرجتها ينقل قول الحافظ أبو بكر البزار قال: حدثنا السَّكن بن سعيد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا إسماعيل بن حماد، عن مقاتل بن حَيَّان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كنا جلوسا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فأقبل أبو بكر وعمر في قبيلتين من الناس، وقد ارتفعت أصواتهما، فجلس أبو بكر قريباً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وجلس عمر قريباً من أبي بكر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "لم ارتفعت أصواتكما؟" فقال رجل: يا رسول الله، قال أبو بكر: الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "فما قلت يا عمر ؟" قال: قلت: الحسنات والسيئات من الله-تعالى-. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: "إن أول من تكلم فيه جبريل وميكائيل، فقال ميكائيل مقالتك يا أبا بكر، وقال جبريل مقالتك يا عمر فقال: نختلف فيختلف أهل السماء، وإن يختلف أهل السماء يختلف أهل الأرض. فتحاكما إلى إسرافيل، فقضى بينهم أن الحسنات والسيئات من الله". ثم أقبل على أبي بكر وعمر فقال "احفظا قضائي بينكما، لو أراد الله ألا يُعْصَى لم يخلق إبليس". قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيميّة: هذا حديث موضوع مختلق باتفاق أهل المعرفة[453].

وقال الحافظ ابن كثير مشيداً بشيخه ابن تيمية: "وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية كتاباً في"إبطال التحليل" تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله ورضي عنه"[454].

---

452. القرآن الكريم.سورة الشعراء.26: 227. ابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1427هـ 2006م. *تفسير القرآن العظيم* 143/14.

453. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1420هـ.1999م. *تفسير القرآن العظيم*. تحقيق سامي بن محمد سلامة. الناشر دار الوطنية للنشر والتوزيع. 362/2.

454. نفسه.712/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ويؤيد قول ابن تيمية فيما يذهب إليه كما في مسألة الخمس الواردة في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾[455] فقال الحافظ ابن كثير:" وعن عائشة – رضي الله عنها- قالت: كانت صفية من الصّفي. رواه أبو داود في سننه وروى أيضًا بإسناده، والنسائي أيضًا عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبَد إذ دخل رجل معه قطعة أدم، فقرأناها فإذا فيها: "من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي وسهم الصّفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله". فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه. وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية – رحمه الله-: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال[456]. وعند تفسير قول الله-تبارك وتعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[457] ذكر ابن كثير كلاماً طويلاً في فضل الذكر وأنواعه وأي الذكر أفضل، وأورد أحاديث كثيرة في الباب ومن أشهرها حديث:((ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟" قالوا: وما هو يا رسول الله ؟ قال: "ذكر الله (عز وجل))[458]. وفي شأن أفضل الذكر قال الحافظ: وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يومًا سُئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار فقال: إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد نافع له وإن كاد دنساً فالصابون والماء الجاري

---

455. القرآن الكريم.سورة الأنفال.8: 41.

456. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1420هـ . 1999م. *تفسير القرآن العظيم*. 4 /62.

457. القرآن الكريم.سورة الأحزاب32: 41.

458. الترمذي. محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي. د.ت. *الجامع الصحيح سنن الترمذي*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. كتاب الدعوات عن رسول الله .صلى الله عليه و سلم. باب ما جاء في فضل الدعاء. حديث رقم 3377. 5/459.قال الألباني صحيح. صحيح الترغيب والترهيب 96/2.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

أنفع له فقال: كيف والثياب لا تزال دنسة ؟[459]. وفي مسألة المفاضلة بين أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنهما- ينقل الحافظ ابن كثير كلام شيخه ابن تيمية وهو يترضى عنه فيقول: وسُئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختصت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تُسلِّي رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وتثبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدَّت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضي الله عنه[460].

ويستحسن قول شيخه ابن تيمية في ما ذهب إليه كما عند تفسيره لقول الله – تعالى-: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[461]. وثمّ قول رابع، نصره أبو العباس بن تَيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله:﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ نفى قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. وهو قول حسن أيضاً والله أعلم[462]. وفي مسألة الربيبة التي في الحجر ذكر الحافظ قصة مالك بن أوس بن الحدثان، قال: كانت عندي امرأة فتوفيت، وقد ولدت لي، فوجِدْت عليها، فلقيني علي بن أبي طالب فقال: مالك ؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة ؟ قلت: نعم، وهي بالطائف. قال: كانت في حجرك ؟ قلت: لا هي بالطائف قال: فانكحها. قلت: فأين قول الله – عز وجل-: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾[463] قال: إنها لم تكن

459. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1420هـ 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 433/6.
460. نفسه. 404/6.
461. القرآن الكريم. سورة الكافرون.109: 2 – 4.
462. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1420هـ 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 508/8.
463. القرآن الكريم. سورة النساء. 4: 23.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

في حجْرك، إنما ذلك إذا كانت في حجرك. قال ابن كثير : هذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب، على شرط مسلم، وهو قول غريب جدًّا، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه. وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك، رحمه الله ، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عَرَض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية-رحمه الله- فاستشكله، وتوقف في ذلك، والله أعلم[464].

ولم يُرجّح الحافظ شيئاً في المسألة وكأنه وافق توقف ابن تيمية في ذلك إذ أنه لم يعلق على ذلك بشيء.

وحقيقة الأمر: أنا نرى الحافظ ابن كثير يصدر عن شيخه ابن تيمية كثيراً، ويسأله فيما يشكل عليه في مواطن الإشكال، ويقف فيما وقف فيه، من غير زيادة أو تعليق، فالعلاقة بينهما كانت في العقائد والتفسير والحديث جلية واضحة، والتأثر بيّن فيما نقلنا من صور التأييد والدعاء والترضي، ولم أجد فيما اطلعت عليه - بكل تواضعٍ وقصورٍ- رداً لكلام ابن تيمية في أقواله إنما هو الاستحسان والدعاء والثناء والقبول. ويُرى بكل وضوح وبدون أدنى لبس أنه على عقيدة شيخه ابن تيمية. وما أثر في ذلك اختلاف المذهب بينهما ففي الشام كان هناك المذهب الحنبلي والشافعي والحنفي؟ بل وعلماء المالكية أيضاً. ولعل ما كتبه في أول كتابه الجليل "البداية والنهاية" عن علو الله على عرشه وإثبات صفة العلو والفوقية لله العلي القدير، ما يفيد بكونه على منهج ابن تيمية ومن وافقه في باب الصفات.

وأما ما أثير حول كونه أشعرياً، لقبوله مشيخة دار الحديث الأشرفية التي شرط واقفها أن يكون المدرس فيها أشعريًا - وأنه استعمل التقية لذلك الغرض فليس بصحيح- فهو شرط غير ملزم، وقد ولي مشيخة هذه الدار الحديث علماء سلفيون من قبله: مثل الحافظ جمال الدين المزي،والحافظ أبو عمرو بن الصلاح.

464. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. 1420هـ 1999 م. *تفسير القرآن العظيم*. 2/ 252.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

إتفاق الشيخين –رحمهما الله– في كثير من المسائل رغم اختلاف مذهبيهما:

كان الإمام الحافظ ابن كثير من أفذاذ عصره، مفسراً، فقيهاً، حافظاً، محدثاً، أثنى عليه معاصروه وتلاميذه، تفقه على الشيخين الكبيرين برهان الدين الفزاري، وكمال الدين قاضي شهبة. وحفظ التنبيه للشيرازي في فروع الشافعية، ومختصر ابن الحاجب في الأصول، ولزم الحافظ الكبير أبا الحجاج المزي، وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال " تهذيب الكمال " وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ولازمه وتخرج على يديه، وصحبته وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد، في علمه ودينه، وتقوية خلقه، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة. وهو مستقل الرأي، يدور مع الدليل حيث دار، ولا يتعصب لمذهبه ولا لغيره. وكتبه العظيمة –خاصة هذا التفسير الجليل– فيها الدلائل الوافرة على ذلك. ونجده – مع أنه شافعي المذهب– يُفتي في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد وهو قول الحنابلة، ومنهم شيخه ابن تيمية، وإنما أفتى بذلك بمقتضى ما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح، وأنه يقع طلقة واحدة، ثم يمتحن ويلقى الأذى، فيثبت على قوله، ويصبر على ما يلقى في سبيل الله[465]

وابن كثير وإن كان يُعد من فقهاء المذهب الشافعي، وكذلك شيخاه المزي والذهبي بخلاف ما كان عليه شيخاه ابن تيمية وابن القيم، لكنه لم يكن متعصباً للمذهب وهو الأمر الذي أزعج المذهبيين المتمسكين بالمذهب عل حساب السنة والأثر. وما من شك أن الذي جمع ابن تيمية وابن القيم الحنبليين والمزي والذهبي وابن كثير الشافعيين، ليس العامل الإقليمي؛ بل الذي ربطهم وجمعهم ارتباطهم جميعاً بمدرسة الأثر والحديث التي ترى أن مصدر العقائد هو الكتاب والسنة. ولا يضر حينئذ إن اختلفوا فقهاً، ومع ذلك كما سلف القول فالحافظ ابن كثير لا يقف متعصباً عند المذهب لو خالف الدليل الصحيح؛ بل هو مع الدليل والأثر الصحيح ولو خالف مذهبه، ومر معنا فتواه في مسألة الطلاق وكيف أفتى فيها بخلاف قول الشافعية.

465. شاكر، أحمد شاكر. 1426هـ . 2005م . *عمدة التفاسير* . 1/25 -27 بتصرف.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ومن خلال ما ذكر لا نرى مخالفة للحافظ ابن كثير لشيخه ابن تيمية فهما متفقان على الأصل والمبدأ وهو الاحتكام للكتاب والسنة وإن كان هذا حنبلياً وذاك شافعياً فقد جمعهما هذا الأصل الذي ذكرنا.

وأنقل من مجلة عالم الكتب القول:" لقدت شهدت بلاد الشام ظهور مدرسة اجتهادية تأسست على علوم الحديث والسنة، وعلى صحيح المنقول وصريح المعقول، مثّلها الإمام المجتهد ابن تيمية ت 728هـ وتلاميذه، وأبرزهم الذهبي وابن القيم وابن كثير. إضافة إلى الإمام الحافظ المزي ت 742هـ وغيرهم من الأئمة المجتهدين، وقد جمع رموز هذه المدرسة بين التمسك بالنصوص والعقلية النقدية[466].

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

466. السنيدي، عبدالرحمن بن علي. 1424هـ.2003م. (مراجعات ابن كثير ونقده لمتون مرويات السيرة النبوية). *مجلة عالم الكتب*. العدد الخامس. ص405.383.

المبحث الخامس

مقارنة بين منهج ابن كثير السنني وطريقة أهل الرأي في التفسير

إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي نال من العناية والاهتمام والدراسة ما لم ينله كتاب آخر، سواء أكان كتاباً سماوياً أم مما كتب الناس.

ولقد اشتغل الناس قديماً وحديثاً بسائر علوم هذا الكتاب المبارك، ومنها علم التفسير ومناهج المفسرين،وهو مدار الكلام في هذا المبحث، فلقد نشأت للمفسرين مناهج اتبعوها في تفاسيرهم للكتاب العزيز، واختلفت هذه المناهج في تفسير كتاب الله – تعالى – وظهر هناك منهجان، المنهج الأول: سُمي التفسير بالمأثور، والمنهج الثاني: التفسير بالرأي أو المعقول. وكان لكل منهج من هذين المنهجين ملامح خاصة، تميزه عن المنهج الآخر. فكان التفسير بالمأثور هو الأصل،وهو الذي عليه الكثير من علماء الأمة وسلفها، ثم ظهر التفسير بالرأي بين السلف الصالح قديماً أيضاً، فاختلفوا فيه ما بين ممانع وموافق ووسط بينهما.

أما من السلف المتقدمين فمنهم من كان يتورع أشد الورع في القول بالقرآن برأيه ويرى في ذلك شر ويمنع من الخوض في ذلك. قال الحافظ جلال الدين السيوطي: "فإن الكلام في معاني القرآن ممن لم ينزل عليه ولا سمع من المنزل إليه، إنما هو رأي محض، فإن كان موافقاً للقواعد فهو التأويل، وإن كان خرج عنها، وأخطأ المراد، فتحريف وتبديل، فإذن الواجب الاقتصار في التفسير على ما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه، فإن في ذلك كفاية ومقنعاً. ومن زعم أنه يأتي بأحسن مما أتوا به، فإنه متهم في دينه، مخدوع في عقله، نعم يبقى النظر في الترجيح إذا اختلفت الرواية عن الصحابة، وذلك غير ممتنع عن المتأهل لذلك، أما إحداث قول زائد على ما ورد عنهم فلا، ولا كرامة[467].

467. السيوطي، جلال الدين السيوطي. ت911هـ . *قطف الأزهار في كشف الأزهار*. تحقيق أحمد بن محمد الحمادي. قطر: إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية.د.ط. ص 91.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

ومن معاني التفسير بالمأثور ما ذكره الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان: هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله – تعالى – من كتابه مثال ما جاء في القرآن قوله سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[468] فإن كلمة من الفجر بيان وشرح للمراد من كلمة الخيط الأبيض التي قبلها.

ومثال ما جاء في السنة شرحاً للقرآن أنه – صلى الله عليه وسلم – فسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[469] وأيد تفسيره هذا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[470] بقي القسم الثالث وهو بيان القرآن بما صحّ وروده عن الصحابة – رضوان الله عليهم –: قال الحاكم في المستدرك: "إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع" كذلك أطلق الحاكم وقيده بعضهم بما كان في بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأي فيه؛ وإلا فهو من الموقوف، أما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء: منهم من اعتبره من المأثور؛ لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً. ومنهم من قال إنه من التفسير بالرأي.[471]

بعض المآخذ على التفسير بالمأثور:

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: فأما ما أضيف إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – مما ثبت عنه فذلك مما خلاف في قبوله؛ لأنه لا يتطرق إليه الضعف و لا يجد الشك إليه سبيلاً، وأما ما أضيف إليه وفيه ضعف في سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، وأما ما نقل عن الصحابة أو التابعين فقد تسرب إليه الخلل،

---

468. القرآن الكريم.سورة البقرة.2: 187.

469. القرآن الكريم.سورة الأنعام.6: 82 .

470. القرآن الكريم.سورة لقمان.31: 13.

471. الزرقاني، محمد عبد العظيم ت 1367هـ. د.ت. *مناهل العرفان في علوم القرآن*. الناشر مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.د.ط. 2/ 12، 13.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

وتطرق إليه الضعف بسبب ما داخله من روايات مصنوعة مكذوبة. ولعل من أبرز أسباب ذلك كثرة الوضع الذي ظهر في سنة إحدى وأربعين من الهجرة بسبب اختلاف المسلمين سياسياً وتفرقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور، ومن أسبابه أيضاً دخول الإسرائيليات في التفسير بالمأثور وهو أمر يرجع إلى عهد الصحابة – رضي الله عنهم – وذلك نظراً لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل وكان الرجوع إلى أهل الكتاب مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، غير أن الصحابة – رضي الله عنهم- لم يكونوا يسألون أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يكونوا يقبلون منهم كل شيء؛ بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدوا أن تكون توضيحاً وبياناً لما أجمله القرآن، ولم يكونوا يسألونهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام. أما السبب الثالث فهو حذف الأسانيد وهو أحد أسباب ضعف التفسير بالمأثور إذ أنه لما جاء عصر التابعين. وظهر الوضع وفشا الكذب، كانوا لا يقبلون القول إلا إذا جاء بسنده، وثبتت لهم عدالة الراوي، فقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال:" لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سمّوا لنا رجالكم "[472]. وظل الأمر في عهد التابعين على هذا لا يروون عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه إلا بإسناده حتى جاء بعد هؤلاء أقوام ألفوا في التفسير فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال من غير عزوٍ إلى قائليها، ولم يتحروا الصحة فيما يروون، وهو أخطر الأسباب جميعاً[473]. والحافظ ابن كثير كان له موقف من الإسرائيليات بيّنه في مقدمة تفسيره فقال – رحمه الله- بعد أن ذكر حديثَ ((بلّغُوا عنّي ولو آيةً ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَجَ، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار))[474] :" ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد. فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبَه بما عندنا

472 . مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. مقدمة صحيح مسلم. الناشر دار إحياء التراث العربي. بيروت. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. باب بيان أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات. 12/1.

473 . الذهبي، محمد حسين .د.ت. *التفسير والمفسرون*. 156/1، 202. بتصرف شديد.

474 . سبق تخريجه هامش رقم 348.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمِنُ به ولا نكذّبه ، وتجوزُ حكايتُه لما تقدّم. وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ دينيّ. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرًا[475]. وأتي بأمثلة من ذلك مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعِدّتهم ، وعصا موسى من أيّ شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضُرِبَ به القتيلُ من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلّم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز. كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾. وقال عند تفسير الآية : (50) من سورة الكهف - بعد أن ذكر أقوالاً في "إبليس" واسمه ومن أيّ قبيل هو ؟! - فقال: "وقد رُوى في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبُها من الإسرائيليات التي تُنقل لِيُنْظَر فيها، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما قد يُقْطَع بكذبه، لمخالفته للحقّ الذي بأيدينا. ثم جعل العمدة في ذلك كله ما صح عندنا معاشر المسلمين فقال: وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كلّ ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة. وليس لهم من الحفّاظ المتْقِنين الذين يَنْفُون عنها تحريفَ الغَالِين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، والبررة النجباء، من الجهابذة النقّاد، والحُفّاظ الجياد، الذين دَوَّنوا الحديث وحَرَّرُوه، وبيَّنوا صحيحَه من حَسَنه من ضعيفه، من منكَره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضّاعِين والكذّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال.

475 . ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت 774 هـ. 1420هـ 1999 م *تفسير القرآن العظيم* . تحقيق سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. ط2. 1/ 31.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبويّ والمقام المحمديّ، خاتم الرسل وسيد البشر- صلى الله عليه وسلم - أن يُنْسَب إليه كذبٌ أو يُحَدَّثَ عنه بما ليس منه. فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وجَعَل جنّاتِ الفردوس مأواهم. وقد فَعَلَ"[476].

نماذج من تفسير ابن كثير بالمأثور: درج الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية على إيراد الأحاديث الواردة في السياق وبيان رواتها، ومواطنها من كتب الحديث، وبيان أحوالها ودرجتها، وما وافقها وما خالفها، وكذلك يورد أقوال السلف، ومثال ذلك حينما تكلم عن عذاب القبر ونعيمه، كما عند تفسير قوله تعالى:﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[477] فأورد الأحاديث الواردة في ذلك، كحديث خرجنا في جنازة رجل من الأنصار[478]. وكذا استوعب أحاديث الإسراء والمعراج عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[479] فأورد أحاديث كثيرة ومنها، ما رواه البخاري وهو الحديث الطويل حديث الإسراء وفيه: ((إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام..... الحديث))[480] وكذا الأحاديث الواردة في فضل الصلاة على النبي عند قول الله – تعالى- : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[481] ذكر هنا جملة من الأحاديث في فضل الصلاة والسلام عليه، وأقوال العلماء في بيان معنى الصلاة، ومن هؤلاء العلماء: أبو جعفر الرازي والربيع بن أنس وأبي العالية وعلي بن أبي طلحة وابن عباس وابن أبي حاتم وسفيان الثوري، وغير واحد من

---

476. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت 774 هـ 1420هـ 1999 م *تفسير القرآن العظيم*. 1/ 32،31. بتصرف.

477. القرآن الكريم.سورة الرعد.13: 27.

478. ابن حنبل، الإمام أحمد الشيباني ت 241هـ. 1416هـ . 1995م. *مسند الإمام أحمد بن حنبل* . تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار الحديث.د.ط. 4/287

479. القرآن الكريم.سورة الإسراء.17: 1.

480. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله. *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه أيامه*. كتاب المغازي. باب كان النبي . صلى الله عليه وسلم. تنام عينه ولا ينام قلبه. حديث رقم 3570. 4/ 191.

481. القرآن الكريم.سورة الأحزاب.33: 56.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

أهل العلم.وكذلك ذكر الآثار والأحاديث الواردة في فضل أهل البيت، عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[482] والدالة على من هم أهل البيت، وأقوال العلماء في ذلك، كالإمام الطبري وغيره، وغير هذا كثير مما فسره الحافظ ابن كثير بأقوال السلف وآثارهم.

ويرى الباحث أن هذه الاستدلالات بنصوص القرآن والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير النصوص، وإعمال الأحاديث وترجيح الصحيح على الضعيف، في إثبات أحكام المسائل، والأخذ بالآثار الثابتة عن السلف من الصحابة والتابعين، هي المنهج المتبع في التفسير بالمأثور عند ابن كثير والناظر في هذا التفسير يرى الالتزام بهذا المنهج واضحاً في ثنايا الكتاب، وإن كان الحافظ ابن كثير شافعي المذهب إلا أنه ليس بمتعصب له، بل يقول بالدليل حيث ما كان، فعند الأمر من الله بدفع المال لليتامى إذا بلغوا سن الرشد:﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[483].قال الحافظ ابن كثير:" أي: وكفى بالله محاسباً وشهيدًا ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مَبْخوسة مدخلة مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: ((يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَن على اثنين، ولا تَلِيَنَّ مال يتيم))[484]. فيورد الأثر من السنة الدال على التحذير المراد، كما فعل في بيان هذا النص.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

482. القرآن الكريم.سورة الأحزاب.33:33.

483. القرآن الكريم.سورة النساء.4: 6.

484. مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. د.ت. صحيح مسلم.كتاب الإمارة. باب كراهة الإمارة بغير ضرورة. حديث رقم1826. 3 /1457، 1458. وابن كثير. أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. 1427هـ . 2006م. تفسير القرآن العظيم. 401/1 بتصرف.

أدب وسيع فموسَّع له أن يُفسِّر القرآن برأيه واجتهاده[488]. وربما جعلوا للتفسير بالرأي ضوابط وشروط تُراعي عند التفسير بالمعقول جملها الشيخ عبد العظيم الزرقاني فقال في بيان منهج المفسرين بالرأي : وخلاصة ما مضى أنه يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره وأن يتذرع بكل العلوم التي نوهنا بها ليكون قد أصاب المراد أو كاد، ووجب عليه أن ينهج منهج الصواب والسداد باتباع ما يأتي:

أولاً: أن يطلب المعنى من القرآن، فإن لم يجده طلبه من السنة لأنها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله شاهدوه حين نزل فوق ما امتازوا به من علم وعمل، وخير ما فسرته بالوارد.

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة، وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي:

1- البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم.

2- إرداف ذلك بالكلام على التراكيب من جهة الإعراب والبلاغة على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية.

3- تقديم المعنى الحقيقي على المجازي بحيث لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة.

4- ملاحظة سبب النزول، فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد.

5- مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة وبين الآيات بعض.

6- مراعاة المقصود من سياق الكلام ها وبعض.

7- مطابقة التفسير للمفسر من غير نقص ولا زيادة.

8- مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون وسنن الاجتماع وتاريخ البشر العام وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن.

---

488. الذهبي، محمد حسين. د.ت. *التفسير والمفسرون*. 65/1 بتصرف.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

9 – مطابقة التفسير لما كان عليه النبي – صلى الله عليه وسلم- في هديه وسيرته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته.

10- ختام الأمر ببيان المعنى والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية.

11- رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال[489].

والتفسير بالرأي منه المحمود، ومنه المذموم، بسائر اتجاهاته الفقهية، والصوفية، والبلاغية، والأدبية، والموضوعية، والتحليلية، والإجمالية،والعلمية، وغير ذلك.

أمثلة على التفسير بالرأي من خلال تفسير الفخر الرازي { التفسير الكبير ومفاتيح الغيب}:

يُعد هذا التفسير أكبر تفسير بالرأي والمعقول، و فيه يذكر المؤلف مناسبة السورة مع غيرها، ويذكر المناسبات بين الآيات، ويستطرد في العلوم الكونية، ويتوسع بها، كما يذكر المسائل الأصولية والنحوية والبلاغية ، والاستنباطات العقلية، ويبين الرازي في تفسيره معاني القرآن الكريم ، وإشاراته ، وفيه أبحاث مطولة في شتى العلوم الإسلامية كعلم الكلام، وأقوال الفلاسفة والحكماء، ويذكر فيه مذاهب الفقهاء وأدلتهم في آيات الأحكام، وينتصر لمذهب أهل السنة في العقيدة، ويرد على المعتزلة، وأقوال الفرق الضالة، ويفند مذاهبهم، كما يرد على الفلاسفة، ويعتبر هذا الكتاب من أجل كتب التفسير وأعظمها، وأوسعها، وأغزرها مادة. يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: "إن تفسير الفخر الرازي يحظى بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفيَّاضة الواسعة، في نواح شتَّى من العلم، ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول: إنه – أي الفخر الرازي – جمع فيه كل غريب وغريبة"[490]. ويقول: "ويظهر لنا أن الإمام فخر الدين الرازي كان مولعاً بكثرة الاستنباطات والاستطرادات في تفسيره، ما دام يستطيع أن يجد صلة ما

489. الزرقاني، محمد عبدالعظيم. د.ت. *مناهل العرفان في علوم القرآن*.د.ط. 2/ 59، 60.

490. الذهبي، محمد حسين. د.ت. *التفسير والمفسرون*. 293/1.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

بين المستنبط أو المستطرَد إليه وبين اللفظ القرآني، والذي يقرأ مقدمة تفسيره لا يسعه إلا أن يحكم على الفخر هذا الحكم"[491].

وسأذكر مثالين من تفسيره لبيان هذا المنهج:

المثال الأول عند الكلام عن معنى الكرسي في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[492] قال الفخر الرازي: "واعلم أن لفظ الكرسي ورد في الآية وجاء في الأخبار الصحيحة أنه جسم عظيم تحت العرش وفوق السماء السابعة ولا امتناع في القول به فوجب القول باتباعه، وأما ما روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: موضع القدمين، ومن البعيد أن يقول ابن عباس: هو موضع قدمي الله – تعالى وتقدس- عن الجوارح والأعضاء، وقد ذكرنا الدلائل الكثيرة على نفي الجسمية في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، فوجب رد هذه الرواية أو حملها على أن المراد أن الكرسي موضع قدمي الروح الأعظم أو ملك آخر عظيم القدر عند الله تعالى"[493].

ويرى الباحث أن إنكار الرازي أن يكون الكرسي موضع قدمي الرب تعالى من قبيل إعمال المعقول وتقديمه على المنقول، وأنه من القول بالتجسيم يعارضه المأثور من أقوال الصحابة وغيرهم في إثبات ما قالوا، وأن هذا خلاف ما ذهب إليه أهل الأثر الآخذين بالنصوص من غير تعطيل لما تحمله من معنى كما ذكر ابن كثير في بيان معنى الكرسي من أنه موضع قدمي الرب تعالى بما ثبتت به النصوص[494]. **والمثال الثاني**: عند قول الله – تعالى -: ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ﴾[495] وهنا نرى الاستدلالات العقلية للفخر الرازي- رحمه الله – فهو يقول: والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم، وآدم كان مخلوقاً من طين. فلهذا

---

491. نفسه. 296/1.

492. القرآن الكريم.سورة البقرة.2: 255 .

493. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي د.ت. *تفسير مفاتيح الغيب*.د.ط. 451/3.

494. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ. تفسير القرآن العظيم.680/1.

495. القرآن الكريم.سورة الأنعام.6: 2.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

السبب قال: ﴿هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ﴾ وعندي[496] فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولدان من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان، فبقي أن تكون نباتية، فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين. وهذا الوجه عندي أقرب إلى الصواب[497].

وختاماً فإن الباحث يرى أن هذا اللون من التفسير المعتمد على المعقول هو من قبيل الخوض في ما لا يصح الكلام فيه لا سيما في تكييف المغيبات التي استأثر الله بعلمها؛ كتكييف صفات الله – سبحانه – أو غيرها من المغيبات. وتحديد زمن المغيبات التي ورد ذِكْرُ خروجها؛ كزمن خروج الدابة، أو نزول عيسى، أو غير ذلك.فهذه الأشياء لا سبيل للبشر إلى معرفتها، فمن زعم أنه قادرٌ على ذلك فقد أعظم الفرية على الله، وكذلك حمل كلام الله – تعالى – على الوجه الذي يوحي بتأييد المذاهب الفاسدة مما عليه بعض المفسرين؛ بل يجب أن تؤخذ أحكام النصوص من الشرعة المطهر نقلاً لا عقلاً، إذ أن النقل فيها أسلم وأحكم، من الخوض باستعمال العقل والرأي، وأما ما كان مبنياً على الضوابط المعلومة في التفسير فلا شك أنه من التفسير بالرأي المحمود وله شواهد من أهل التفسير كابن جرير الطبري الذي ما كان يُعطل العمل بالرأي إذا لزم الأمر.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

496. الكلام للفخر الرازي.

497. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي. د.ت. *تفسير مفاتيح الغيب*. 216/6.